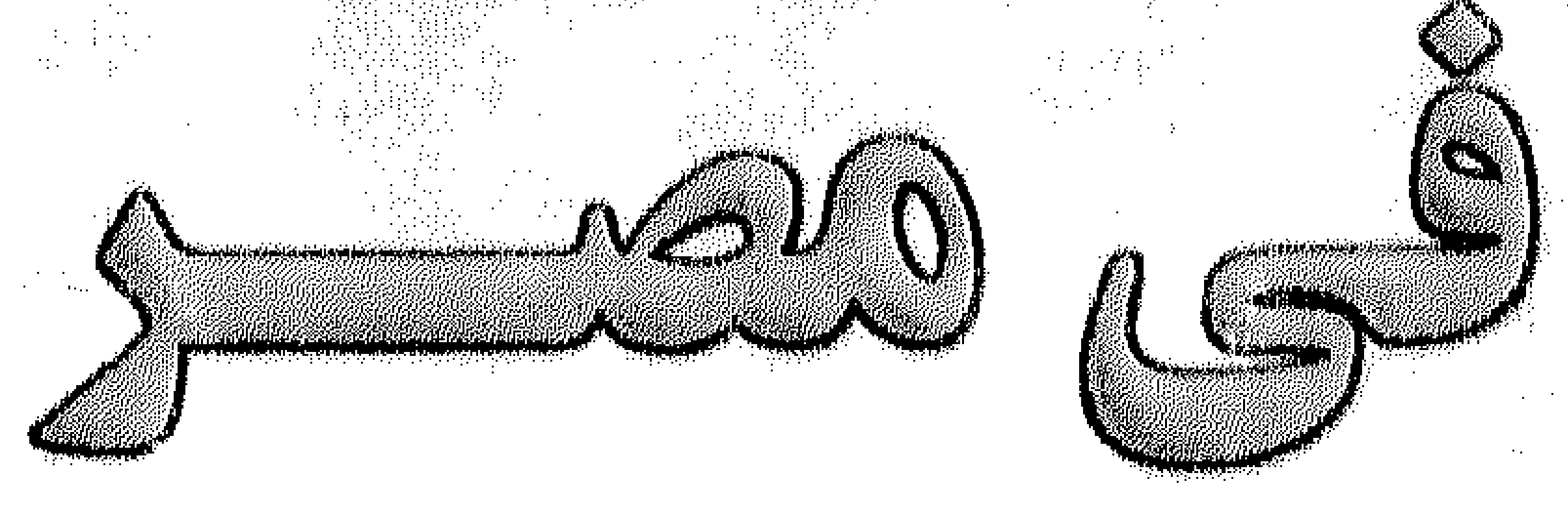


العائلة المقدسة



تأليف

فتحى فوزى عبد المعطى

خطوات
العائلة المقدسة
فى مصر

تأليف

فتحى فوزى عبد المعطى

بسم الله الرحمن الرحيم

(وإذْ قَالَت المَلائِكَة يَا مَرْيم إنَّ الله اصْطَفَاكَ وَطهَّرَكِ واصْطَفاكِ عَلَى نِسَاء العَالِمين)

قرآن كريم - سورة آل عمران الآية (٤٢)

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وأمه آيَةً وآويْنَاهُمَا إلىَ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ وَمَعِينِ)

قرآن كريم - سورة المؤمنون الآية (٥٠)

"أفضل النساء مريم بنت عمران"

حديث شريف

(مبارك شعبى مصر)

أشعياء الإصحاح ١٩ (٢٥)

إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلمه، وقال له:

(قُمْ وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، لأن هيرودس مُزْمِع أن يطلب الصبى ليهلكه)

إنجيل متى الإصحاح الثانى (١٢، ١٣)

لما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف قائلاً:

(قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين يطلبون نفس الصبى)

إنجيل متى الإصحاح الثانى (١٩، ٢١)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مصر.. مهد الحضارات منذ آلاف السنين.

وإذا كان للسماء أن تفاخر بنجومها وأفلاكها، وللأرض أن تفاخر بأشجارها وأعشابها ومياهها، وحياة الإنسان عليها ..

فإن لمصر أن تفخر بأنها البلد الذى كان مزارا للكثيرين من الأنبياء والمرسلين:

فإلى مصر.. جاء خليل الله إبراهيم عليه السلام .. جد الأنبياء .. تصحبه زوجته سارة.

ومن مصر.. كانت هاجر التى تزوجها إبراهيم، لتنجب له بكره إسماعيل .. جد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وإلى مصر.. جاء نبى الله يوسف عليه السلام .. اشتراه عزيز مصر، ليكون فيما بعد أمينا على خزائنها.

وإلى مصر، جاء نبى الله يعقوب وبنوه، أخوة يوسف، ليجدوا كل ترحيب ومودة من أهلها.

وفى مصر.. كان مولد موسى عليه السلام وعلى أرض

سيناء كلمه ربه بالوادى المقدس طوى، وإليها جاء يدعو فرعونها إلى عبادة الله وتوحيده.

وإلى مصر.. جاء نبى الله عيسى عليه السلام مع عائلته .. هرباً من بطش هيرودس، ليجدوا فيها الأمان والسلام والمحبة.

ومن مصر.. كانت السيدة مارية القبطية زوج رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

واليوم -أو غدا- يبدأ عام جديد هو نهاية الألف الثانية وفجر الألف الثالثة لميلاد المسيح عيسى عليه السلام، فتعود إلى الأذهان ذكريات كثيرة فى حياة العالم عامة .. ومصر خاصة، باعتبار أنها كانت مزارا للعائلة المقدسة.

وهذا الكتاب .. متابعة لخطوات العائلة المقدسة فى مصر، وما وقع خلالها من أحداث ومعجزات وبركات .. أجراها الله على يد عيسى عليه السلام، وهو ما يزال طفلا صغيرا.

وقد راعيت فى هذا الكتاب عدة اعتبارات أهمها:

١- الاعتماد فى هذه الدراسة على ما جاء فى القرآن الكريم، وفى الأناجيل، والكتب التى تعرضت لهذا الموضوع.

٢- التعرُّف على الأماكن التى زارتها العائلة المقدسة فى مصر، وتوضيح معلومات عنها من الناحيتين التاريخية والجغرافية .. متى أمكن ذلك.

٣- دراسة للظروف التاريخية والسياسية التى كانت تعيشها

كل من فلسطين ومصر فى هذه الفترة، باعتبارهما المسرح الذى دارت عليه الأحداث.

٤- الاعتماد فى خطوات العائلة المقدسة على أصدق الروايات، وما أجمعت عليه أكثر الآراء .. بما يتفق مع العقل والمنطق، والبعد عن الآراء الأحادية.

٥- وإذا كان للخيال بعض من نصيب فى تتابع الأحداث والخطوات، فلم يكن ذلك إلا بقدر يسير.. أمكن توظيفه لخدمة تسلسل الأحداث، وبما يتناسب مع كل شخصية من شخوصها.

٦- فى نهاية الكتاب .. يجد القارئ مجموعة من الخرائط التى توضح خطوات سير العائلة المقدسة، والمدن والقرى التى زارتها.

والله ولى التوفيق

المؤلف

فتحى فوزى عبد المعطى

(١)

كان ذلك منذ ما يقرب من ألفى عام ..

كان الخريف قد أدبر، ليُسْلِم الكون إلى الشتاء ببرودته، وأشرق نور الصبح، فقامت مريم ابنة عمران -كعادتها- إلى مصلاَّها .. تناجى ربها .. تشكره .. تدعوه، ثم نظرت فى الأفق حولها، فإذا قرص الشمس يعلو فى السماء، يمنح العالم الدفء والنور، وقد بدأت الحياة تدبُّ فيما حولها .. كل لما يسَّر له الرب من رزق.

وتطلَّعت مريم إلى وجه ابنها عيسى، فأحست بالرضا، وبنور يضىء كل ما حولها. لم تدر مريم بنفسها، وقد ارتدَّت بها الذكريات .. ذكريات كثيرة تطفو على ذهنها، وصور عديدة عاشت أحداثها .. تُعاودها .. تتراءى أمامها، كما لو كانت حاضرة بين يديها.

إنها تتذكر ذات يوم بعيد .. يوم انتهت مدة خدمتها فى هيكل الرب، وبلغت مبلغ النساء فى قومها، وشاء لها رجال الدين أن تكون واحدة مثل غيرها من أترابها .. تتزوج، وتعيش حياتها .. تشارك زوجها حياته وآماله.

يومها اختلف القوم فيمن يكون خطيبا لمريم، وهى سليلة الأنبياء، وربيبة بيت الرب .. نذرتها أمها لخدمته .. طائعة،

فتفتَّح قلبها، وتحرك وجدانها على طاعة الله، فما يستطيع أحد أن يقطع فى أمرها وحده.

يومها .. أوحى الرب إلى الكاهن زكريا أن علامة ستظهر على من اختاره خطيباً لمريم .. أكثر من ألف وسبعمائة شخص من الشباب والرجال والشيوخ .. كتب كل منهم اسمه على عصاه، وبعد الصلاة .. دخل زكريا المحراب، يسلِّم كل واحد عصاه، وحينما جاء دور عصا أحدهم .. خرجت حمامة بيضاء .. استقرَّت على رأس صاحبها، فكان هو خطيب مريم.

وتطلَّع الحاضرون، ليروا من يكون هذا الذى اصطفاه الرب لمريم .. كان الشيخ يوسف النجار الذى جاوز الثمانين من عمره، واقترب من التسعين!! ودهش يوسف النجار لاختياره لهذه المهمة الصعبة، وشاركه الدهشة كل من حضروا، فكيف لشيخ عجوز قد اكتهل، وشاخت به الأيام إلى شتاء عمره .. أن يتزوج من فتاة جميلة، ما تزال فى بواكير ربيع عمرها، كزهرة نديَّة، وكيف لهما أن يسايرا ركب الحياة!! .. كم حزن كثير من الشباب الذين تمنوا أن يحظوا بمريم عروساً .. كثيراً ما حاولوا أن يطرقوا باب قلبها، فلم يتصل بهم الأمل وما أرادوا .. لكن هؤلاء وهؤلاء لا يملكون إلا أن ينفذوا اختيار الرب ومشيئته.

وسعدت مريم باختيار الرب لها، رغم فارق السن بينها وبين يوسف، فلما كان الغداة .. سافر الخطيبان إلى الناصرة، حتى يحين الحين، فيتزوجا وفقاً لشريعة موسى .. حيث عاشت

مريم مع خطيبها .. ترعاه، تشاركه حياته وكفاحه كنجار.

حتى كان ذات يوم .. ذهبت مريم بصحبة بعض من أترابها إلى بئر القرية .. يملأن جرارهن، وانصرف أترابها، وتعثرت هى قليلا، فراعها أن تجد نفسها وحيدة، ولدهشتها، سمعت صوتا يهتف بها:

- (مباركة أنت من النساء يا مريم[1])

يومها ملأ الخوف قلبها، وهزّتها المفاجأة، وأدهشها أن تجد أمامها فتى جميلا، يقتحم عليها وحدتها، حتى أنها ارتابت فى يقظتها، وظنت أن ما تراه ليس إلا طيفا من خيال، يسرى صوته فى هدأة المكان، لكن الطيف يبدو شاخصا أمامها .. تراه عيناها، وصوته يدق سمعها، فما تملك إلا أن تلوذ بربها، تدعوه .. تهتف من أعماقها.

- (... إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا)[2]

وجاءها صوت الفتى الذى أمامها .. يقول لها فى نبرة روحانية:

- (... إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا)[3]

قالت مريم فى دهشة مما تسمع:

---

(١) إنجيل لوقا: الإصحاح الأول (٢٨).

(٢) سورة مريم الآية (١٨).

(٣) سورة مريم الآية (١٩).

- (أنَّى يكُونُ لِى غُلامٌ ولَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ولَمْ أكُ بَغِيًّا)[1]

وعاودها صوت الفتى يقول لها على لسان ربه:

- (... كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أمْرًا مَّقْضِيًّا)[2]

.. يومها .. أدركت مريم بشفافية إيمانها أن هذا الفتى هو ملاك الرب، فما مضت بضع لحظات، حتى اقترب منها .. ونفخ فى جيب درعها، فحملت بكلمة من الله وروح منه.

يا لها من لحظات عاشتها مريم فى ذلك اليوم، وأفكار كثيرة تتصارع فى ذهنها المكدود، فتعود إلى دارها، وتهدأ إلى مصلاها .. تدعو ربها .. تسأله أن يهبها الأمان، ويجنّبها المخاوف، فماذا يكون أمرها مع يوسف؟!

ومضت مريم فى ذكرياتها، كأنما تستقرئ الماضى.

إنها تتذكر .. يوم أحست بشكوك يوسف، وقد أرهقه الفكر، أو كأنما أثخنته جراح الشك، توجعه، وقد خانه الصبر، وعلامات الحمل تكبر على مريم، ولأن يوسف بشر، يخشى الفضيحة أمام أبنائه، ومقالة السوء فى قومه، فآثر أن يتخلّى عنها .. حتى إذا هدأ يطلب الراحة .. غَفَتْ عيناه، فرأى ملاك الرب يهتف به:

- يا يوسف يا ابن داود .. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك،

---

(١) سورة مريم الآية (٢٠).

(٢) سورة مريم الآية (٢١).

لأن الذى حملت به هو من الروح القدس، وستلد ابنا يخلص شعبه من الخطايا[1].

منذ ذلك اليوم تمسّك يوسف بمريم، وقد أخذ على نفسه عهدا أن يقف معها .. يذود عنها كل شر.. يرعاها .. يحميها من كل سوء.

وتمضى مريم فى ذكرياتها ..

إنها تتذكر.. حين قدمت مع يوسف إلى بيت لحم، ليسجلا اسميهما فى سجلات مدينة داود، تنفيذا لمشيئة هيرودس وسيده أغسطس قيصر روما.

كان يوما خالدا فى حياة مريم .. حيث نزلت فى مكان خارج مدينة بيت لحم .. على مقربة من مزود بقر أهمله الرعاة فى تلك الليلة .. لم يستطع يوسف أن يحصل لهما على (خان)، ليقضيا فيه الليل، فقد كانت المدينة مزدحمة .. ليلتها أحست مريم بعلامات المخاض تهزها وهى وحيدة، فاتجهت إلى جذع نخلة جاف .. تحتضنه، كلما ألمت بها الآلام، وأفكار كثيرة تتزاحم فى رأسها، وهى تتذكر قومها حين تذهب إليهم .. تحمل وليدها، دليل جريمتها، كما يظنون، ويعلم الله أنها مبرَّأة من كل إثم، مطهَّرة من كل ذنب، فما تمنع لسانها من أن يهتف:

- (... يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)[2].

---

(١) إنجيل متى - الإصحاح الأول (٢١، ٢٠).

(٢) سورة مريم الآية (٢٣).

فمـا هـي إلا لحظـات .. حتـى انفصـل عنـها جنينـها .. تصاحبـه هالـة مـن النـور.. أضـاءت كـل مـا حولهـا، وسمعـت أصواتـا ملائكيـة تغنـي:

- المجـد لله فـي الأعـالي، وعلـى الأرض السـلام، وبالنـاس المسـرة[1].

وألقـت مريـم نظـرة حولهـا، فـإذا جـذع النخلـة الجـاف قـد اسـتحال إلى نخلـة باسـقة .. اخضـرت أغصانـها، وتدلـت ثمارهـا، علـى غير موعدهـا، فتمنـت مريـم لنفسـها حبـات مـن البلـح .. تعـوض بـه مـا فقدتـه مـن جـهد المخـاض، وبضـع قطـرات مـن مـاء تبـل بـه حلقـها، فجاءهـا صـوت مـلاك الـرب .. يبـث فـي نفسـها الطمأنينـة .. ينـاديـها:

- (... أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي واشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ...)[2]

عنـد ذلـك قـامت مريـم، فغسـلت ابنـها وقمطتـه، وقـد فـاضت بـها عاطفـة الأمومـة، ثـم تنـاولت مـا شـاءت مـن حبـات البلـح، وشـربت مـاء طـهورا .. عذبـا .. شـاكرة لله فضلـه ونعمـه، وسمعـت مـلاك الـرب يـهتف بـها:

- (... يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى

---

(١) إنجيل لوقـا - الإصحـاح الثـانى (١٤).

(٢) سـورة مريـم الآيـات (٢٤، ٢٦).

نِسَاءِ العَالَمِين ۞ يَا مَرْيَم اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)[1].

هكذا كانت مريم فى ذلك اليوم .. منذ ما يقرب من ألفى عام، تُسامر ذكرياتها وأحاديث نفسها، حين دخل عليها يوسف، وهو أشدُّ ما يكون لهفة للقائها، وقد كَسَتْ وجهَه سحابةُ من الضيق والخوف، وقال:

- لك الله يا مريم.

قالت مريم فى نبرة خوف، وهى تستشِفُّ ما بدا على وجه يوسف:

- فماذا يا ابن العم؟ لكأنكَ تخفى عنى سراً .. تحفظه بين طيّات نفسك .. منذ لحظات .. كنت أعيش مع نفسى أحداثاً مضت، وذكريات طافت بذهنى .. تداعت صورها فى عقلى بسطورها، ما كان فيها حلواً، وما كان قاسياً .. تأكدت من خلالها أن الرب معنا فى كل خطواتنا، فبحق الرب .. ماذا يقلق خاطرك يا يوسف؟!

- ....

نظرت مريم إلى ابنها، فإذا ابتسامة مشرقة تكبر على وجهه الصغير، فما يزيدها هذا إلا إيماناً بقدرة الرب وحكمته، فقالت:

---

(١) سورة آل عمران الآيتان (٤٢، ٤٣).

- يا يوسف: دع عنك مخاوفك، وثق أن الرب لن يتخلى عنا.

- أعلم ذلك يا مريم .. يا ربيبة بيت الرب .. لكن ..

- لكن .. ماذا يا يوسف؟ إن كلماتك ونبرات صوتك تحيّرنى.

وهدأ يوسف قليلا، واعتدل فى جلسته، ثم نظر إلى مريم، وقال:

- هل تذكرين يا مريم هؤلاء الرجال .. الرجال المجوس؟!

- اذكرهم جيدا .. إنهم رجال جاءوا من المشرق .. يتبعون نجما لهم .. تقول كتبهم إن موعد ظهوره مقترن بميلاد نبى جديد .. يولد فى أرض اليهودية، أليس كذلك؟!

- بلى يا مريم.

وعادت مريم تقول:

- واذكر أنهم قدموا إلينا، وسعدوا بلقاء وليدى، أهدوه الهدايا .. لبانا وذهبا ومرا.

قال يوسف:

- كان هؤلاء الرجال قد تعاهدوا مع هيرودس أن يدلوه على مكان الوليد، وأخشى أن يكونوا قد فعلوا، مما قد يصيبنا بشر على أيدى هيرودوس ورجاله.

- فالله خير حافظ لنا.

- لكن .. علينا أن نرحل من هنا يا مريم.

- وإلى أين يا يوسف؟! أنترك ديارنا وأهلينا بعد أن آمنوا ببراءتى؟!

- إلى أرض غير أرضنا، وديار غير ديارنا، وقوم غير قومنا؟! .. بهذا أمرنى ملاك الرب.

وأخذ يوسف يحكى لمريم ما كان من أمره مع ملاك الرب، حين غفت عيناه لحظة، فسمعه يقول له:

- (قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه[1])

قالت مريم، وقد غلبها الفكر؟

- هى إذن مشيئة الرب، لا نملك لها ردا.

- وما علينا إلا الرحيل بعيدا ..

- إلى مصر.

- وليهبنا الرب الأمان والسلامة.

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الثانى (١٣).

(٢)

سقط الليل على فلسطين، وغاب القمر فى تلك الليلة، لأمر شاءه الرب، واختفت النجوم خلف سحب كثيفة من الظلام، فما بدا منها إلا نقط صغيرة تنفذ من فروج قميص الليل، وأبرد الجو، فزاد الليل رهبة على رهبته، وغرق الكون فى سكون، ويدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها، وهدأ الناس، يطلبون الراحة التى إفتقدوها فى يقظتهم، لما يشعرونه من ظلم حاكمهم هيرودس الذى طغى ونسى ربه .. أنساه الشيطان كل ما هو حق، وغلبه على أمره، فابتعد عن جادة الصواب، وهوى إلى هاوية سحيقة، لا يستطيع منها الفكاك. فأكبَّ على استعباد بنى مملكته، يرضى نفسه التى نزعت إلى الشر، ويرضى سادته من الرومان الذين يسيطرون على أرض فلسطين .. حتى رجال الدين .. نسوا تعاليم ربهم، وانغمسوا فى أهوائهم، يشايعون هيرودس ورجاله.

فى وسط هذا الظلام ..

.. هذه قافلة صغيرة .. تمضى فى الطريق. خرج أفرادها من ديارهم فى عين كارم، متجهين إلى بيت لحم، لعلهم يصلون إليها، ليتخذوا طريقا آخر بعيدا عن فلسطين.

شيخ عجوز قد جاوز الثمانين من عمره، يتوكأ على عصا تضطرب فى يده .. تمنعه شيخوخته من أن يسرع الخطو،

ومع ذلك، فهو ماض فى طريقه، ممسك بإحدى يديه زمام حمار أسود .. تعلوه فتاة قروية جميلة .. يشع وجهها نورا وبهاء .. ترتدى ثوبا أسود من الصوف الخشن، وتغطّى رأسها وبعض وجهها بطرحة بيضاء .. تحمل بين يديها طفلا صغيرا .. يرتدى سروالا طويلا .. علقت على صدره تعويذه، وعلى رأسه ريشة قرمزية اللون، وخلف الركب .. تسير امرأة فارعة الطول .. تتعثر فى خريف عمرها. تحمل صرة بها متاع الأسرة من ملابس وطعام وشراب.

إنهم: يوسف النجار، ومريم العذراء، وابنها عيسى، والقابلة سالومة التى عاهدت نفسها أن تمضى معهم حيث شاءوا، تشاركهم آمالهم وآلامهم بعد ما رأته من بركات ومكرمات للوليد الصغير.

مضى الجميع فى طريقهم .. يغذّون السير حينا، ويهدأون حينا آخر، يتطلعون خلفهم، خوفا من أن يكون أحد يتعقبهم، وأفكار كثيرة تتسابق إلى ذهن كل واحد منهم، وإن اشتركوا جميعا فى خواطرهم وآمالهم .. تخالطها صور أخرى، حين تلعب بهم الظنون والمخاوف، فما يزيدهم كل هذا إلا إصرارا على المضى فى الطريق الذى شاءه اللّه لهم.

كانوا يسيرون، وفى عيونهم دموع تلتمع ولا تنهل، احتبسوها فى مآقيهم .. يشجع بعضهم بعضا بكلمات الصبر والمنى .. لقد تركوا قومهم وديارهم بلا وداع، ودون أن يلتقوا بأحبائهم قبل أن يفترقوا .. انسحبوا وسط الدجى، خوفا من

أن يراهم أحد، فيسد عليهم الطريق وما أرادوا .. أو يفضح وجهتهم .. خرجوا فرادى .. يتعاقب بعضهم بعضا، حتى لا ينكشف سترهم .. يأملون أن تكون رحلتهم إلى مآب .. ليعودوا إلى أهلهم بعد حين قليل .. أليس ملاك الرب أنبأهم بهذا!؟. كم حزنت مريم لأنها لم تستطع أن تودع ربيبها زكريا، ولا قريبتها أليصابات، أو ابنهما يحيى الذى وهبه الله لهما فى شيخوختهما بعد طول انتظار ولهفة للولد، فكان صنوا لولدها عيسى .. يفصل بين مولدهما ستة أشهر.

هكذا مضى الجميع فى طريقهم .. حتى وصلوا إلى مدينة بيت لحم، وقد أجهدهم السرى، فاتجهوا إلى مكان ناء .. يستريحون فيه قليلا .. بينما مضت سالومة تجد فى البحث عن طعام وشراب ليكون زادا لهم فى رحلتهم الطويلة.

كان الظلام ما يزال ينشر أرديته الحالكة على الكون، فيلف بيت لحم وما حولها بغلالة سوداء قاتمة .. وقد هدأ حراس المدينة عند أبوابها .. يطاردون النوم عن أجفانهم. يشعلون النار فى مجامر، يلتمسون فيها دفءا لأجسادهم، ويستلهمون من بصيص بقاياها المتقدة خواطر آمالهم وأحاديثهم.

قال أحدهم:

- ألا ما أعجب أمر هذا الرجل - هيرودس؟! وما أقساه على شعبه الذى ناء كاهله من ظلمه وقسوته!!

وقال آخر:

- حتى رجال الدين .. انخرطوا فى صفوفه .. نسوا دينهم، وانغمسوا فى ملذاتهم، وابتعدوا عن تعاليم ربهم، فشطوا، وتاهت بهم الحقيقة.

وقال ثالث:

- وأطاعوا الشيطان، فأفسد عليهم حياتهم.

- أما كفاه ما كبل به شعبه من أغلال .. أعجزته من أن يحطمها ، فانهارت جسور الأمان بينه وبين الناس.

- وما زلنا نرتقب يوم الخلاص، فمتى يأتى؟!

- أو لعل الرب يهديه، فيعود إلى الصواب.

- فمتى كان للصخر أن يثمر ثمرا؟!

فبينما هم كذلك .. يعبرون عما تجيش به نفوسهم .. تعلو أصواتهم حينا، وتخفت أحايين كثيرة .. جاءهم كبيرهم، واقترب منهم، ثم قال لهم فى نبرة حازمة:

- أغلقوا أبواب المدينة .. احكموا متاريسها.

- ....؟!

- هذه تعاليم سيدى العظيم .. هيرودس - ألا يخرج من المدينة أو يبارحها أحد مهما كان أمره أو وجهته ..

وعلت الدهشة وجوه الحراس ..، فقد كانوا يحرسون المدينة من أعداء وطنهم .. ولكنهم منذ الليلة يمنعون أهلها من مغادرتها .. يمنعونهم أرزاقهم وحياتهم، كأنما غدوا سجناء فى

ديارهم .. بينما عاد كبير الحراس يقول:

- هذه تعاليم سيدى هيرودس.

وترك الحراس النيران فى مواقدها، حتى أن بعضهم أصابته لسعات من نار كانت تتأهب للاشتعال، فما أحس بها، وأسرعوا إلى أبواب المدينة، فأحكموا متاريسها .. بينما انصرف كبيرهم، وهو يتهددهم إن أهملوا فى تنفيذ ما أمرهم به.

فى ذلك الوقت ..

.. وصل ركب العائلة المقدسة، يوسف ومريم وابنها وسالومة، وقد بدت على وجوههم -رغم قصر المسافة بين بيت لحم وعين كارم- مظاهر الإعياء، فقد أجهدهم الظلام وقسوة البرد والخوف، مما هم مقبلون عليه.

كان بعض الحراس قد انخرطوا فى نوم عميق، بعد أن أحكموا إغلاق الأبواب، بينما بقى أحدهم ساهرا، فما كاد يرى القادمين، حتى اقترب من يوسف، وتقدم إليه وسأله:

- من أنتم؟

ارتبك يوسف، فلم يكن يتوقع أن يعترض طريقه أحد وسط هذا الظلام، لكنه تمالك نفسه، وقال كمن ينفى عن نفسه تهمة الغربة.

- عائلة يهودية من فلسطين.

- فأى الجهات تقصدون؟

- إننا نقصد حبرون، لنقدم واجب العزاء لبعض أقاربنا.

- لكن أوامر سيدى هيرودس تمنع مغادرة المدينة .. أمرنا بهذا كبير الحراس، تنفيذا لمشيئة سيده.

ما كادت مريم تسمع كلمات الحارس .. حتى طاف بها طائف من القلق، وتملكها الخوف .. لا عليها، ولكن على ابنها، فقد راضت هى نفسها على احتمال الصبر والمكاره، وشاركها خواطرها كل من يوسف وسالومة .. لكن الجميع تذكروا أن الرب هو الذى أمرهم بهذا، ولابد أن يجنبهم المشاق، ويهديهم إلى الصواب.

واتجه يوسف إلى الحارس، وقال له:

- لقد قطعنا الطريق وسط هذا الظلام، حتى نستطيع أن نصل إلى ما نبغى قبل مشرق الصباح.

أحس الحارس بصدق كلمات يوسف، ورأى اللهفة فى عيون سالومة ومريم، وحانت منه التفاتة سريعة نحو الطفل بين يدى أمه .. فشعر بسعادة لم يألفها من قبل .. لكنه كان أعجز من أن يحقق لهم ما يريدون، فقال فيما يشبه الأسف:

- لكننا لا نملك مفاتيح أبواب المدينة .. أخذها كبيرنا وانصرف، ولن يعود إلا فى الصباح، فيفتح مغاليق الأبواب بنفسه.

أُخِذت مريم مما سمعت، فتحيرت .. لا تدرى ماذا تفعل،

ونظرت إلى ابنها، وقد بدت الدموع فى عينيها، كأنها تستلهم راحة لنفسها التى عصف بها القلق أو كاد، فإذا هو ينظر إليها كأنه يطمئنها.

وطاف بذهن مريم طائف لذكرى لا تنساها يوم جاءت قومها، تحمل ابنها، وهم ينظرون إليها، كمن لوثها الإثم .. يتهمونها بالسوء والفاحشة وخيانة العهد الذى تعاهدته مع يوسف خطيبها .. .. فقالوا لها:

- (... يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)[١]

- (يَا أُخْتَ هَارُون مَا كَانَ أَبُوكِ امْرأَ سَوْءٍ ...)[٢]

- (... وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)[٣]

يومها .. اتجهت إلى ابنها، وأشارت إليه، كأنها تستلهم جواباً لسؤالهم .. لكنهم أسرعوا يقولون:

- (... كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فى الْمَهْدِ صَبِيًّا)[٤]

ولدهشتهم جميعاً .. جاءهم صوت الوليد فى مهده .. يقول فى صوت مسموع واضح:

- (... إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلاةِ

---

(١) سورة مريم الآية (٢٧).

(٢) سورة مريم الآية (٢٨).

(٣) سورة مريم الآية (٢٨).

(٤) سورة مريم الآية (٢٩).

وَالزَّكَـــاةِ مَــا دُمْــتُ حَيًّــا ۞ وَبَــرًا بوالدتِـــى ولم يجعلنـــى جَبَّــارًا شَــقِيًّا ۞ وَالسَّــلامُ عَلَــىَّ يَــوْمَ وُلِــدتُّ وَيَــوْمَ أَمُــوتُ وَيَــوْمَ أُبْعَــثُ حَيًّــا)[1]

وما تـدرى مريـم، وهـى فـى خِضَـمٍّ ذكرياتـها عـن هـذا اليـوم، إلا أن تحتضـن طفلـها بحنـان الأمومـة الصادقـة، فتحـسّ بنفحـة عطـرة تبـث فـى نفسـها الطمأنينـة، وتسـرع إليـها سـالومة، فتـأخذ الطفـل مـن بـين يديـها، وقـد غلبـها شـىء مـن بكـاء، وتمضـى بـه بعيـدًا .. إلى أحـد أبـواب المدينـة، ويمـدُّ الطفـل يـده، فيلمـس مـزلاج البـاب، فيفتـح على مصراعيـه!!

يـا لرحمـة الـرب وبركـة الصغـير.. الحـراس يغطُّـون فـى نـوم عميـق، وأحـد الأبـواب مفتـوح، والظـلام يسـتر الكـون، والطريـق مفتـوح أمامـهم إلى خـارج مدينـة بيـت لحـم، فمـا عـاد يمنعـهم شـىء مـن الخـروج، وقـد تضاعفت الفرحـة .. حـين ظنـوا ألا رجـاء..

فليمضـوا فـى الطريـق .. بعيـدًا .. إلى حيـث شـاءوا، ولسـانهم يلـهج بالشـكر لله.

(

---

(١) سـورة مريـم الآيـات (٣٠، ٣٣).

(٣)

هدأ هيرودس فى حجرته يستعيد أحداثا مضت، وخلفته لأفكار تقذف به فى أمواج القلق .. إنه يتذكر ذات يوم، حين أنبأه أحد عرافى قصره، أنه سيولد فى بيت لحم من سيكون سببا فى ضياع ملكه وهلاكه .. يومها لم يهتم هيرودس بما قاله العراف، وكاد أن يفتك به، ثم طرده من قصره، حتى لا يعاود على مسامعه كلماته!!

ومنذ أيام، قدم إليه رجال مجوس من المشرق، قالوا فيما قالوه له: إنهم حضروا من ديارهم إلى فلسطين، يتبعون نجما يهديهم الطريق إلى مولود، ولد فى بيت لحم لعذراء لم تقترن برجل، وأن هذا الوليد سيكون نهاية ملكه على يديه، ووعدوه إن ساعدهم فى الوصول إلى مكان الطفل أن يأتوا به إليه، وفعل هيرودس ما طلبوه. بعث معهم رجالا، يجوبون أنحاء مدينة بيت لحم .. يفتشون الدور عن هذا الطفل .. لكن الأيام مضت، وطال به الانتظار دون أن يعود المجوس .. فما أشقاه!!

كان عزيزا على هيرودس فى تلك الليلة أن ينام، وقد أهمه الأمر، ووشت سحب القلق على وجهه .. كثيرا ما حاول أن يستجدى النعاس، فلم يستجب لندائه، ولم يخضع لمشيئته، وهو الذى عنت له الرؤوس مذلة أو تجلة .. خاصم الكرى

جفنيه المسهدتين، فمضى يذرع حجرته .. جيئة وذهابا، وقد ذهب فكره مذاهب شتى .. تنبئه بمصير سيئ لا مخرج منه!! وكأن ضجيجا وصخبا يدق فى عقله. وقد أسلمته مخاوفه لليل طويل، ليس فى سماء فلسطين من هو أشقى منه!!

حتى إذا أثقله القلق، وعصف به الفكر.. غفت عيناه لحظة، رأى فى منامه، كأنه يسير وسط بركة آسنة من الدماء، .. تدوس قدماه أشلاء الضحايا الذين قتلهم، وهم يطاردونه .. يتعلقون به، يكادون أن يفتكوا به، ولمح بينهم زوجته مريمنة ووليديها وصديقيه، وكثيرا من الرجال الذين أراق دماءهم، وأزهق أرواحهم على مدى سنى حكمه!!

فلما استيقظ من غفوته .. راعه ذلك الظلام الذى يحيطه .. يملأ عليه حجرته، دون أن يجد من شموع سوى ذبالة تتنفس لاهثة، فلم يستطع أن يرى ما حوله، فعاوده الغمض، ليرى نفس ما رآه فى حلمه .. الدماء والضحايا والأشلاء، فما زاده هذا إلا رعبا وخوفا.

فلما كان الصباح من غد، استدعى رجاله، يسألهم أمر هؤلاء المجوس الذين كانوا يبحثون عن طفل ولد لعذراء .. لماذا لم يعودوا إليه حسب عهدهم له، وقد طال به الانتظار.

وجاءه صوت أحد رجاله يقول:

- لقد غادروا فلسطين يا مولاى .. عائدين إلى ديارهم.

قال هيرودس فى حنق:

- دون أن يحققوا العهد الذى تعاهدوه معى؟! أن يدلونى على الطفل؟!

كان الرجال المجوس، بعد أن زاروا مريم وابنها، وأهدوه هدايا، لبانا وذهبا ومرا .. قد فكروا فى العودة إلى هيرودس ليرشدوه عن مكان الطفل .. لكنهم سمعوا هاتفا يناديهم:

- (لا تذهبوا إلى هيرودس، لأنه مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه .. اذهبوا إلى كوركم[1] من الجهة الغربية، لأن جنود هيرودس فى طريقهم إليكم[2]).

من أجل هذا .. غادر المجوس فلسطين، عائدين إلى ديارهم فى المشرق، دون أن يخبروا هيرودس بمكان الطفل، فما كاد هيرودس يسمع ما قاله أحد رجاله، حتى شعر كأنه وسط بحر هائج، تتواثب أمواجه، أو كأنه وسط صحراء واسعة .. انفتح مداها، وابتعد ما بين قاصيها ودانيها، وقد تشابكت دروبها، وتشابهت مسالكها، فما يدرى ماذا يفعل.

جمع هيرودس كبار قواده ورجاله الذين كان يستشيرهم كلما أهمه أمر.. كل يدلى برأيه، يحاولون أن يجدوا مخرجا لسيدهم مما يتهدده، لكنهم لم يصلوا إلى رأى يعيد إليه الأمان، فما هم بمستطيعين أن يبحثوا عن الطفل، وهم عاجزون أن يلحقوا بالرجال المجوس، لأنهم سلكوا طريقا غير الطرق

---

(١) كوركم: جمع كورة أى إقليم.
(٢) إنجيل متى: الإصحاح الثانى (١٢).

المألوفة لهم، وبقى هيرودس ينظر إلى رجاله، وهم يفكرون، وكثيرا ما أعلن سخطه وغضبه عليهم بكلمات حانقة .. ثائرة .. أو مهددة.

وانتهى النهار، وآوى هيرودس إلى فراشه، وطيف حلمه يتراءى أمام عينيه، والقلق يلازمه، حتى إذا طاف به طائف الكرى .. سمع هاتفا يهتف به:

- لخير لك وللملك أن تذبح كل أطفال بيت لحم،ممن هم دون السنتين .. حتى تمنع هؤلاء الأطفال من أن يكبر أحدهم ويناصبك العداء.

واستيقظ هيرودس من نومه، وما تزال كلمات الهاتف تدق سمعه .. تأمره أن يذبح الأطفال فى بيت لحم، حتى إذا عاوده الغمض .. سمع الهاتف يقول له:

- فى بيت لحم وما حولها.

كان الصبح قد أسفر، فجمع هيرودس رجاله، وراح يصرخ فيهم، كمن أصابته لوثة فى عقله، وهم منه دهشون:

- اذبحوا كل الأطفال فى بيت لحم.

- ....؟!

- ممن دون السنتين عمرا.

- ....؟!

- بيت لحم وما حولها .. حتى نقضى على الطفل الوليد ..

ذلك الذى زعموا أنه سيكون سببا فى ضياع ملكى ..

وسكت هيرودوس، كأنما ألقى على عاتقه حملا ينوء به كاهله.

فما أشرقت الشمس .. حتى كان رجال هيرودس يجوبون بيت لحم وما حولها .. يدخلون الدور بلا طرقات .. بلا استئذان .. ينتزعون الأطفال من صدور أمهاتهم .. يذبحونهم، فتموت البسمة على وجوههم وشفاههم، وما يزالون فى مهدهم، لم يقترفوا إثما، ولم يرتكبوا معصية، لم يستمع الجنود القساة لصرخات الأطفال، ولم تأخذهم الشفقة على أمهاتهم الملتاعات الثاكلات .. فما يملكن إلا أن يصرخن، وهن يتشبثن بأبنائهن فى حسرة وألم .. يعتصر الحزن قلوبهن، فقد شاء هيرودس للعود الأخضر أن يذبل، وهو ما يزال ينمو فى حضن الحياة!! وشاء للأزهار التى لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح محرقة .. فأذبلتها.

ولم يكتف رجال هيرودس بقتل الأطفال[1] دون السنتين .. بل عمدوا إلى الأمهات اللائى كن على وشك أن يضعن حملهن، فبقروا بطونهن، ليخرجوا أجنتهن على نصل السكين!!

فما هى إلا ساعة أو بضع ساعات .. حتى كانت بيت لحم

---

(١) مما يذكر أن عدد الأطفال الذين قتلوا فى هذه المذبحة أكثر من ١٤٠ ألف طفل.

ومـا حولهـا بركـة آسـنة مـن دمـاء الضحايـا الأبريـاء، وتنـاثرت الأشـلاء مزقـا فـى الشـوارع، واصطبغـت الجـدران بـاللون الأحمـر القـانى، تعلـن عـن قسـوة الحـاكم ووحشـية رجالـه، وهبـت ريـاح الظلـم عاصفـة .. تقتلـع الأمـن مـن نفـوس النـاس الذيـن بـاتوا مـهددين بـالقتل، ورجـال هـيرودس يقتحمـون الـدور.. يسـلبون مـن النسـاء أبنـاءهن وشـرفهن، ومـن الرجـال كرامتـهم!!

وفـى وسـط هـذه الأنـواء التـى كـانت تعيشـها بيـت لحـم، بحـث قـوم مريـم عنـها هـى وابنـها، فمـا وجدوهمـا!! وعـن يوسـف فلـم يعـثروا عليـه، فـأيقنوا أن رحمـة الله الواسـعة أبعدتـهم عـن خطـر، ومـا يملكـون إلا أن يوصـى بعضـهم بعضـا بـأن يكتمـوا سـرهم فـى صدورهـم، وأن يضمـدوا جـراح نفوسـهم بالصـبر.. بعـد أن حرمتـهم الأقـدار مـن أن يودعـوا مريـم وابنـها، فقـد كـان عزاؤهـم أنـهما ابتعـدا عـن خطـر رجـال هـيرودس.

ولنـدع الآن بيـت لحـم ومـا تعيشـه مـن مجـازر وأحـداث، ونعـود إلى ركـب العائلـة المقدسـة، لـنرى مـا كـان مـن أمرهـم فـى طريقـهم إلى مصـر.

(٤)

انطلق أفراد العائلة المقدسة مريم وابنها ويوسف وسالومة من بيت لحم .. يستعجلون الطريق إلى حبرون حتى بلغوها مع مشرق النهار، فسعدوا أيما سعادة بابتعادهم عن خطر أوشك أن يقع لهم .. لم تكن حبرون موصدة أبوابها مثل بيت لحم، ومع ذلك، كان على أفراد الأسرة المقدسة أن يغادروها سريعا إلى خارج فلسطين، فاتجهوا فى طريقهم نحو الغرب إلى أقرب نقطة على مشارف الحدود بينها وبين مصر.

ولئن كان أفراد العائلة المقدسة على دراية بذلك الطريق الذى سلكوه ما بين عين كارم وبيت لحم وحبرون .. إلا أن الطريق إلى مصر لم يكن مألوفا لهم، ولم يكن لهم به دراية سابقة، خصوصا وأنه ليس طريقا واحدا، وإنما عدة طرق يسلكها رجال القوافل، ويسير فى دروبها المسافرون، فاتجهوا إلى ربهم يدعونه أن يوفقهم إلى أيسر هذه الطرق وأكثرها أمنا وسلاما.

وأقبل الليل، وهم ما يزالون فى طريقهم[١] متجهين غربا .. لا يهدأون إلا لماما .. حين يستروحون بعض الراحة من عناء الطريق، أو حين يبتهلون إلى الرب بالصلاة والدعاء، وانتهى

---

(١) كان هذا الطريق يعرف بطريق حورس، أو طريق الشمال.

الليل، وأسفر النهار، فكان يوما جديدا، وعالما جديدا يرونه لأول مرة .. الصحراء امتدت أمامهم متسعة، لا يصل إليها مدى البصر، ومع ذلك فهم ماضون، وقد استراح بالهم، وهدأ خاطرهم، لولا ما كان يطوف بخيالهم من ظنون أن يكون أحد رجال هيرودس قد تابعهم فى مسيرتهم، لكنهم كانوا يبعدون هذه الظنون عن أذهانهم، وانتهى النهار، وأقبل ليل جديد على غير سابقه .. فيه أشرق القمر بنوره، فبسط على الكون رداء فضيا، كأنه يحرسهم .. يرشدهم إلى الطريق، يمنحهم الأمان والآمال .. حتى وصلوا إلى غزة .. تلك المدينة الجميلة التى تقع على شاطئ البحر، فأسعدهم المكان، وهم يتنسمون فيه ريحا نقية، وتهب عليهم من البحر نسمات رقيقة حانية .. تذكرهم بفضل الله.

وفى غزة .. أبصروا غير بعيد منهم نخلة باسقة، ما تزال بها بعض من ثمارها، فاستراحوا تحت ظلالها، وشربوا من بئر ماء كان على مقربة منها.

كانت مدينة غزة بالنسبة لهم بداية طريق الأمان، وأسعدهم أن يروا الرعاة، وهم يجوبون أنحاء المنطقة، بحثا عن كلأ لماشيتهم، ورعاة الأغنام وهم يهشون عليها بعصيهم، لا يريدون بها شرا ولا أذى، لكنهم يبعدونها عن شطط الطريق.

فما استراحوا قليلا فى هذا المكان .. حتى مضوا فى طريقهم على مقربة من الساحل مولين وجوههم غربا .. متجهين إلى مصر، فما وجدوا كثيرا من مشقة أو عناء ..

أليسوا فى كنف الرب .. ينفذون مشيئته؟ أليس معهم عيسى روح الله .. حباه الرب ببركة منه.

كثيرا ما اتصل بهم -وهم فى الطريق- بعض المسافرين ورجال القوافل التجارية، أو هؤلاء الذين يعيشون فى المنطقة، فما وجدوا من كل هؤلاء وهؤلاء إلا خيرا أسعدهم، وطمأنهم بما شاءه الرب لهم.

وعلموا فيما علموه ممن اتصلوا بهم فى الطريق، ومما كانوا يتذكرونه عن رجال دينهم وشيوخ قومهم .. أن هذا الطريق هو الذى سلكه جدهم إبراهيم وجدتهم سارة، حين قدموا إلى مصر ذات يوم بعيد، وأنه نفس الطريق الذى سار فيه يعقوب وبنوه .. متجهين إلى مصر حين كان يوسف أمينا على خزائن مصر، فآواهم وأكرم وفادتهم، وأجزل لهم العطاء، ومنحهم أرضا فى شرق مصر.. يسكنونها وينعمون فيها .. كم تسعدهم هذه الذكريات، وتطمئن خاطرهم تلك المشاعر الطيبة من الشعب المصرى .. ربما تمنوا واشتاقوا أن يسمعوا أخبارا عن أهلهم فى فلسطين .. لكن السبل قد تقطعت بينهم .. بعد أن أغلق هيرودس أبواب بيت لحم.

بينما أفراد العائلة المقدسة ماضون فى طريقهم .. لاحظوا أن رجلين يتبعانهم فى الطريق بعد خروجهم من غزة .. لم يفارقاهم، ولاحظ كل من سالومة ويوسف أن الرجلين قد اقتربا منهما كثيرا .. حتى كادا يلازمانهما، ونظراتهما مخيفة .. تنبئ عن شىء بداخلهما .. تلمع عيونهما وسط الظلام ..

حتى أدرك كل من سالومة ويوسف أن الرجلين يبغيان بهما شرا .. يوشك أن يأتيا به .. ترى ما أمر هذين الرجلين؟، ولماذا تبعا الأسرة فى طريقها؟ سؤال كان يحير سالومة ويوسف .. بينما كانت مريم مشغولة بأمر ابنها .. كأنما أراد الله أن يبعد عنها المخاوف .. حتى إذا لاحظت ما بدا على وجه كل من سالومة ويوسف .. شاركتهما ظنونهما ومخاوفهما .. داعية الرب أن يحفظهم من مخاطر الطريق(١).

كان الرجلان لصين .. اعتادا أن يسلبا المسافرين ورجال القوافل أموالهم ومتاعهم، فما كادا يشاهدان أفراد الأسرة المقدسة، حتى ثارت فى نفسيهما نوازع الشر، وقررا سرقة ما معها من متاع وأموال، لكنهما -ولدهشتهما- من خلال متابعتهما .. أدركا أنها أسرة فقيرة، لا تملك من المتاع ما يغريهما بالسلب .. حتى قال أحدهما للآخر:

- إنها صفقة خاسرة .. لا تستحق أن نضيع وقتنا فيها.

قال الآخر فى إصرار:

- لكننا لا نجد أمامنا إلا أن نسرق ما معهم .. لعل فى صرة هذه المرأة ذات القامة المديدة ما يعوضنا عن طول المسير..

- فلنتركهم، وما شاءوا .. فقد نهتدى إلى من نجد لديهم خيرا.

---

(١) تروى بعض الروايات أن العائلة المقدسة فى طريقها تعرضت لبعض المخاطر.. حيث قابلهم ذات يوم أسدان متوحشان .. ولكنهما ما كادا يقتربان من الطفل حتى ظهرا كقطين أليفين، ثم مضيا فى طريقهما بعيدا عنهم.

- لكنى أراها فرصة سانحة يجب ألا نتركها.

وعاد الأول يقول:

- لم نقابل قافلة على مدى تجاريننا مثل هذه الأسرة التى يبدو على أفرادها أنهم لا يملكون مالا ولا ذهبا ولا متاعا، ولخير لنا أن نبتعد عنهم، ونتركهم وشأنهم، لنبحث عن صيد آخر يعوضنا الطريق.

لكن اللص الآخر.. لم يستمع لكلمات زميله، وأسرع بخطواته، واقترب من يوسف، وسد عليه الطريق، وقال له:

- إلى أين؟!

ارتبك يوسف وتردد فى الإجابة، وضاعت منه الكلمات، وأحست مريم كأن خطرا يوشك أن يقع لها وابنها، وظنت أن يكون الرجلان من جنود هيرودس بعثهما للقبض عليهم، ليعودا بهم إلى ديارهم .. لكن الرجلين فيما بدا على مظهرهما ليسا كذلك .. كم تخشى مريم على ابنها منهما .. إنهما رجلان ممتلئتان قوة، وهى وحيدة إلا من شيخ عجوز، لا يستطيع الدفاع عن نفسه .. حتى هذه المرأة العملاقة سالومة .. لا قبل لها بمصارعة هذين الرجلين، فهى أعجز من أن تصمد أمامهما.

كان الليل قد انتصف، والطريق طويل موحش، وليس فيه من يستصرخون به .. فما تملك مريم إلا أن تحتضن طفلها، وهى تلهج بالدعاء إلى ربها، واهتز قلبها، وقد اقترب منها الرجل الآخر، فأصبح الرجلان فى مواجهتهما، ولاحظت أن أحدهما ينظر إلى ابنها بين يديها كمن يتفحصه، وحاول أن

يـأخذه منـها .. بينمـا كـان الرجـل الآخـر يـهتف بكلمـات هـزت قلبـها:

- إلى أيـن؟

كـان يوسف مـا يـزال يبحـث عـن كلمـات يقولهـا .. لكـن مريـم أسرعت تقـول، وقـد التصقـت بطفلـها:

- إننـا متجـهون إلى مصـر.

وحـانت مـن أحـد اللصـين التفاتـة سـريعة وسـط الظـلام إلى مـا بـين يـدى مريـم .. ربمـا دفعـه فضولـه إلى ذلـك، أو لعلـه حسـبه متاعـا ثمينـا تحتفـظ بـه، فـإذا هـو طفـل صغير يقـترب مـن عامـه الثـالث .. مـا كـاد يكشـف عـن وجهـه، حتـى أحـس بنـور يشـرق فـى جنبـات نفسـه .. نـور لم يألفـه مـن قبـل، وشـعر بسـعادة بالغـة، فقـال لمريـم فـى نبرة هادئـة:

- فإنـا مسـافران معكـم .. نصحبكـم .. مرتحلـين إلى مصـر.

هـدأت نفـس مريـم قليـلا، وإن لم يبتعـد عنـها الخـوف .. بينمـا عـاد الرجـل يقـول:

- فـهل تـأذنون لنـا؟! إن الطريـق طويـل شـاق، وأحسـب أن فـى صحبتكـم خيرا لكـم.

وبينمـا مضـى الجميـع فـى طريقـهم .. لاحظـت مريـم أن أحـد الرجلـين ينظـر إلى ابنـها نظـرات طويلـة، كأنمـا يسـعده هـذا، وقـد علـت وجهـه فرحـة جديـدة عليـه، وهـو يبـادل ابنـها ابتسـامته فـى مـودة وألفـة، كأنـه قـد عـاد رجـلا غير الـذى كـان مـن قبـل .. هـدوء

ومـودة .. حتـى أنـه كثـيرا مـا تمنـى أن يشـارك الأسـرة صلاتـها ودعاءهـا لربـها حـين تكـون الصـلاة .. سـعيدا بـهذه الصحبـة .. كأنمـا امتـلأ قلبـه بـالحب لأفرادهـا.

أعجـب مـن هـذا أن مريـم لاحظـت أن الرجـل كثـيرا مـا كـان يسـرع إلى ابنـها عيسى .. يجفـف عرقـه بمنديلـه .. عـدة مـرات كـان الرجـل يفعـل ذلـك، ويسـرع بـالمنديل إلى جيبـه[1]، وهـو يقـول:

- هـذه بركـة أعتـز بـها، واحتفـظ بـها.

- ....؟!

- لتكـون ذكـرى طيبـة لرحلـة مباركـة، إننـى أشـعر الآن كـأنى ألقيـت حمـلا ثقيـلا كـان ينـوء بـه كـاهلى.

بعـد حـين .. ابتعـد الرجـلان .. مودعـين .. بينمـا مضـت العـائلـة فـى طريقـها .. ينظـرون آيـات الـرب ومظـاهر قدرتـه وحكمتـه .. يتـابعون مشـرق النـهار حـين يكـون الصبـاح بنـوره، ومغيـب الشـمس، حـين يصفـر وجهـها، ثـم يكـون المسـاء بليلـه المظلـم حينـا، أو حـين يطلـع القمـر، فـتزدان بـه السـماء فـى أطـواره المختلفـة، هـلالا أو بـدرا، فيبـدد بنـوره ظـلام الليـل، وتلـك النجـوم المتنـاثرة فـى السـماء .. تطـل علـى الكـون بعيونـها الذهبيـة .. فـى جمـال الطبيعـة .. زرقـة مياهـها، وصفـاء سمائـها،

---

(١) بـالغ بعـض الـرواة فـى وصـف هـذه القصـة، فذكـروا أن الرجـل كـان يمسح عـرق الطفـل بمنديلـه .. ثـم يعصـره فـى زجاجـة .. حتـى امتـلأت .. لكـن الـذى يعنينـا مـن هـذا أن نؤكـد أن الرجـل قـد هـداه الله، وتـاب عـن الجريمـة، وذلـك ببركـة الطفـل عيسـى.

الماء الذى ينساب فى بعض الوديان الصغيرة، وقد بللتها مياه الأمطار، وامتدت حولها الخضرة، فبدت كسطور بيضاء فى صفحة خضراء .. الطيور التى تسبح فى فضاء الله الواسع حرة طليقة .. بعيدة عن قبضة حاكم، أو تسلط رجاله .. كثيرا ما اضطرت مريم أن تنزل عن حمارها، وهى تحتضن طفلها، لتشارك يوسف وسالومة وهم يصعدون الروابى، أو يهبطون الأودية، أو يدورون حول الأكام، وسالومة تخفف عنهم عناء الطريق بقصصها وأحاديثها .. حتى بلغوا مدينة العريش فاستراحوا فيها قليلا، ثم واصلوا المسير مارين بمنطقة الزرانيق[1] حتى وصلوا إلى مدينة الفرما[2].

---

(١) الزرانيق: تقع قرب مدينة العريش بحوالى ٣٧ كم، بها آثار كنيسة قديمة، وصهاريج كانت تستخدم فى تخزين المياه فى فصل الشتاء.

(٢) الفرما: مدينة قديمة تقع على مدخل مصر الشرقى، شمال غرب قرية بالوظة على البحر المتوسط، عرفت بعدة أسماء:

- بليوزم: نسبة إلى فرع النيل البيلوزى الذى كان يصب فى البحر عند هذه المدينة، والذى يشغله الآن جزء من ترعة بحر مويس.
- برامن: أى مدينة الاله آمون الذى كان فرع النيل يسمى باسمه فى العصر الفرعونى.
- برما: كان اسمها فى العصر القبطى.
- الفرما: عرفت بهذا الاسم فى العصر الإسلامى، وهو مشتق من الاسم القبطى.

(٥)

كـان علـى العائلـة المقدسـة حـين وصلـوا إلى الفرمـا أن يستريحوا مـن عنـاء السـفر الطويـل لمدة أيـام، قطعـوا خلالهـا أكثر مـن ٤٠٠ كيلومـترا مـا بـين فلسـطين ومصـر، فجلسـوا تحـت شـجرة صغـيرة، يسـتمتعون بنسـماتها الرقيقـة، ويـهدأون تحـت ظلالهـا، ويستروحون فيـها ريـح ديـارهم فـى عـين كـارم وبيـت لحـم وحـبرون والخليـل، حيـث أشـجار التـين والزيتـون والكـروم بشـذى عطـر أزهارهـا.

وإذا كـان أفـراد العائلـة المقدسـة قـد سـعدوا بوصولهـم إلى مصـر، فقـد كـانت قلوبـهم مـا تـزال تـنزع إلى أهلـهم وديـارهم .. يتلمسـون أخبـارا عنـهم ..

فبينمـا هـم كذلـك فـى جلسـتهم .. مـر عليـهم رجـال مـن قافلـة تجاريـة قادمـة مـن فلسـطين، دار بينـهم حديـث، فعلمـوا منـهم أخبـار تلـك المذابـح التـى ارتكبـها رجـال هـيرودس فـى بيـت لحـم ومـا حولهـا، وعلمـوا فيمـا علمـوه أن هـذه المذابـح كـانت مـن أجـل طفـل ولـد لعـذراء لم يمسسـها بشـر، لأن هـذا الطفـل سـيكون سـببا فـى نهايـة ملكـه .. بـهذا أنبـأه أحـد عرافـى قصـره والرجـال المجـوس، ولئـن حمـدت العائلـة المقدسـة للـرب أن أنقـذ عيسـى مـن سـكين هـيرودس، وكفـاهم مشـقة اللوعـة وآلام الفـراق، فقـد سـاءهم مـا حـاق بأطفـال قومـهم الذيـن أراق رجـال هـيرودس

دمـاءهم دون أن يقـترفوا إثمـا، إلا أن الأقـدار شـاءت لهـم أن يسـلط عليـهم حـاكم ظـالم، ولعـل يوسـف ومريـم وسـالومة فـى دهشـتهم وحزنـهم لمـا سمعـوا .. قـد تذكـروا مـا حـدث ذات يـوم بعيـد .. حـين عصـف الظلـم بفرعـون مصـر، فقـام بذبـح كثـير مـن أطفـال بنـى إسـرائيل بعـد أن أخـبره أحـد رجالـه أن نهايـة ملكـه سـتكون علـى يـد طفـل عـبرانى .. نفـس الظـروف التـى تعيشـها بيـت لحـم، عاشـها بنـو إسـرائيل مـن قبـل، وإذا كـان الله قـد حمـى موسـى مـن سـكين فرعـون مصـر، وأبقـى عليـه، ليكـون نبيـا، ولينقـذ قومـه، فـهو حـافظ لعيسـى مـن سـكين هـيرودس.

وعلمـت العائلـة المقدسـة فيمـا علمتـه مـن رجـال القوافـل القـادمين مـن فلسـطين والذيـن مـروا بـهم فـى الطريـق. أن رجـال هـيرودس، قـد ذبحـوا نبـى الله زكريـا عنـد هيكـل الـرب حيـث كـان يقيـم صلواتـه ويرتـل أدعيتـه .. عجـزوا عـن الوصـول إلى ابنـه يحيـى الـذى ولـد مـن أبويـن شـيخين طـاعنين فـى السـن .. معجـزة أجراهـا الله لبيـان قدرتـه ومشـيئته .. كمـا عجـز رجـال هـيرودس عـن الوصـول إلى أليصابـات[1] فـانتقموا مـن زكريـا .. كـم حزنـت مريـم لمـا أصـاب زكريـا الـذى رعاهـا فـى طفولتـها وصباهـا، وكـان لهـا نعـم الأب والمعلـم، ومـا يملـك يوسـف إلا أن يشـاركها أحزانـها، ويدعـو الله أن ينقـذ يحيـى مـن سـكين هـيرودس.

---

(١) كـانت أليصابـات قـد هربـت بابنـها إلى الباديـة، خوفـا عليـه مـن رجـال هـيرودس.

ودار بذهن مريم ذكريات كثيرة، عاشت أحداثها منذ بضع سنين .. هى الآن حاضرة بين يديها، إنها تتذكر يوم أنبأها ملاك الرب بنبأ حمل أليصابات بابن لها فى شيخوختها[1] .. يومها تركت مريم الناصرة، وجاءت إلى عين كارم، لتبارك لقريبتها فضل الله عليها، حين استجاب لدعائها وزوجها بعد طول انتظار.

وأيقظ يوسف مريم من تفكيرها، وهو يقول:

- عما قليل نعود إلى ديارنا يا مريم .. نأسو جراح قومنا .. لعل الله يعوضهم عمن فارقوا من أحباب، كانوا يضعون فيهم الآمال، فاحتسبوهم عنده.

قالت مريم:

- إنه الغد، ولن يطول بنا انتظاره، ونرجو أن نطمئن على يحيى.

- إن يحيى بضعة من زكريا .. الله أرحم به من يفتلذها هيرودس منه.

وما يملكون، وهم فى آمالهم وظنونهم، وخوفهم ولهفتهم .. إلا أن يلوذوا بربهم يصلون له .. يسألونه أن تحمل الأيام القادمة ما يريح خواطرهم، ويعيد البسمة إلى شفاههم، والفرحة إلى وجوههم ..

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الأول (٣٦، ٣٧).

.. حتى إذا أصابوا بعض الراحة من عناء التفكير ومشقة السفر.. غادروا الفرما .. ماضين في طريقهم نحو الغرب .. متجهين إلى مصر.

كانت بواكير الربيع قد بدت على وجه الأرض، فاكتست مساحات واسعة من الطريق بالخضرة، وأورقت الأشجار المتناثرة أو المتباعدة، وهبت النسمات رقيقة حانية على وجه الكون .. منعشة على وجه الأسرة المقدسة، كأنها دعوة ترحيب من مصر للقادمين إليها، ليدخلوها إن شاء الله آمنين، وكأن الأيدى المصرية تصافح أفراد العائلة المقدسة فرحة بمقدمهم .. تفرش لهم الأرض خضرة، وتتلقاهم بالمحبة، فكان عليهم أن يغذوا السير.. تسابق الفرحة خطواتهم .. حتى وصلوا مدينة القنطرة(١).

وفى القنطرة .. قابلهم أحد المصريين، فنصحهم بالاتجاه نحو الجنوب، ليتفادوا المنطقة الواسعة من المياه والمستنقعات التى تشغلها بحيرة عظيمة (بحيرة المنزلة حاليا) حتى لا تعوقهم عن المضى فى طريقهم، ففعلوا. حتى إذا وصلوا إلى المنطقة التى تقع شمال بحيرة التمساح حاليا،

---

(١) تقع القنطرة شرق بحيرة المنزلة .. جزؤها الشرقى الآن، يقع شرق قناة السويس، وغربها غرب قناة السويس. مع ملاحظة أن قناة السويس، لم تكن موجودة فى هذه الفترة، ومن واقع الدراسات الجغرافية لهذه المنطقة ثبت أنه كان يوجد فرع النيل قديم هو الفرع البالبوزى التى كانت تقع عليه مدينة باليوزم أو الفرما حاليا، وهو أحد الفروع الستة للنيل التى كانت تصب فى البحر المتوسط.

عـاودوا الاتجـاه نحـو الغـرب، وسـلكوا طريقـا أكـثر أمنـا، وأيسـر مـن الطـرق الأخـرى التـى تكتنفـها الرمـال والأشـواك .. هـو الطريـق الـذى كـان يشـغله وادى الطميـلات[1] .. حتـى وصلـوا مدينـة بوبيسـطة (تـل بسـطة) قـرب الزقـازيق، فـهدأوا تحـت إحـدى الأشـجار فـى منطقـة بعيـدة عـن المدينـة، فـى انتظـار مـا تحمله لهـم الأيـام القـادمـة.

(١) وادى الطميـلات: واد قديـم كـان فرعـا مـن فـروع النيـل فـى الدلتـا القديمـة، ثـم ردمتـه الرمـال بفعـل عوامـل التعريـة، وتعـرف هـذه المنطقـة باسـم الصالحيـة حـاليـا، يشغله الآن جـزء مـن ترعـة الإسماعيليـة.

(٦)

كـــان وصـــول العائلــة المقدســـة إلى تـــل بســـطة[1] فـــي ٢٤ بشـنس[2]، وكـان الجـو حـارا قائظـا، فاختــاروا مكانــا بعيـدا عن المدينــة، فـي طـرف مـن أطرافـهـا، وجلسـوا تحـت إحـدى الأشـجار ذات الظـلال الوارفــة .. فقـد أجـهدهم المسير وشـدة الحـرارة، ومـا تجشموه مـن مشـاق، ومـا أقلقـهم مـن أخبـار عـن أهلـهم وديـارهم، وغلـب النـوم كــلا مــن يوسـف وسـالومة، بينمـا ظلــت مريـم مسـتيقظة تحتضـن ابنــها، وترعـى شـئونه، وتنظـر إلى الطريـق فـي ترقـب وخـوف، وأحسـت مريـم بالظمــأ، وأدركـت بشـفافية أمومتــها أن ابنــها -بضعـة منــها- قـد أصابــه مــا أصابــها، فقـامت إلى متاعـها تبحـث عـن مـاء .. لكنـها وجـدت وعـاءه خاليـا حتـى مـن قطـرة واحـدة .. لقـد نفـذ كـل مـا فيـه بسـبب طـول الرحلـة وشـدة الحـرارة، فراحـت تتلفـت حولهـا، علـها تجـد مصـدر مـاء تـروي بـه ظمـأ ابنـها، لكـن المسـافات بـاعدت بينـها وبـين مـا

---

(١) تـل بسـطة أو بوسـطة: نسبة إلى الإلهـة باسـتت (القطـة السـوداء) تقـع الآن قـرب الزقـازيق علـى بعـد ١٠٠ كـم مـن القـاهرة، وهـي أنقـاض مدينـة قديمـة كـان اسمـها بوبسـتيس .. أنشـاها ملـوك الأسـرة ٢٢، وعلـى مقربـة منـها كـانت توجـد مدينـة أواريـس عاصمـة الهكسـوس .. مـن آثارهـا معبـد قديـم للإلهـة بسـتت.

(٢) وفـي هـذا اليـوم يحتفـل المسيحيون بوصـول العائلـة المقدسـة إلى مصـر، وهـو يوافـق اليـوم الأول مـن شـهر يونيـة مـن كـل عـام.

تبغـى، وفكـرت أن توقـظ سـالومة أو يوسـف ليبحـث أحدهمـا عـن مصـدر مـاء فـى المدينـة، فقـد جـف حلقـها، وتيبَّسـت الكلمـات علـى شـفتيها، فمـا تسـتطيع أن تتكلـم .. كـم تمنـت سـحابة .. تكـون بشـير مطـر يمنحـها بعـض مـاء!! ولكـن السـماء خالية من سـحاب!!

كـانت لحظـات قاسـية، عاشـتها مريـم، وهـى تحتضـن ابنـها بيديـها حينـا، وحينـا آخـر بعينيـها، ربمـا تسـتطيع هـى أن تتحمـل قسـوة الظمـأ، ولكـن ابنـها مـا يـزال عـودا أخضـر أعجـز مـن يقـاوم الظمـأ، وعاودتـها ذكريـات ذلـك اليـوم القريـب، يـوم جاءهـا المخـاض عنـد جـذع نخلـة، وقـد أصابـها الظمـأ، فدعـت ربـها، فجعـل لهـا مـن تحتـها سـريا، شـربت منـه، وغسـلت ابنـها، فـهل يكـون الـرب بـها رحيمـا كمـا عودهـا، فيهديـها إلى مـا تطفـئ بـه لهفتـها .. تغـدو وتـروح، وهـى ترنـو إلى مـا حولهـا .. يمتـد بـها البصـر إلى أبعـد مـا تـرى .. ربمـا فكـرت أن تغـادر مكانـها لتبحـث عـن مـاء فـى المدينـة، لكـن يوسـف وسـالومة مـا زالا فـى نومـهما، وهـى لا تسـتطيع أنْ تـترك ابنـها وحـده فـى هـذا المكـان المنعـزل .. كـان عيسـى قـد جلـس علـى مقربـة مـن أمـه .. ينظـر إليـها، كأنـه يطمئنـها، وهـى متجهـة بنظرهـا إلى مـا حولهـا حينـا، وإلى السـماء حينـا آخـر.. تنـاجى ربـها .. حتـى إذا أصابـها بعـض مـن يـأس .. وأرهقـها النظـر.. عـادت إلى ابنـها، كأنـها تأسـف لمـا آل إليـه أمرهـا، فـإذا هـو ممسـك بقطعـة مـن حديـد .. لا تـدرى، كيـف وصلـت إلى يديـه، وإذا هـو يـدق بـها الأرض كمـن يلـهو بـها، فـأعمل بـها حفـرة صغـيرة، ولدهشـة مريـم، وهـى تـرى

المياه تتدفق من هذه الحفرة .. هادئة .. ثم غزيرة، مياه عذبة صافية، فراحت تغترف منها بكفيها، وتسرع إلى ابنها لتسقيه، ثم تشرب هى .. سعيدة بهذا الخير الوفير الذى أفاء الله به عليها. واستيقظت سالومة، و بعدها استيقظ يوسف، ليشاركا مريم سعادتها، وقد أدرك الجميع فضل الله عليهم ببركة الطفل عيسى، ولو نظرت مريم بظهر الغيب، وكُشف عنها حجاب الزمن، لعلمت أن ابنها هذا سيكون رسول ربه إلى قومها، ليعيدهم إلى تعاليم ربهم، وأن دعوته دعوة سلام ومحبة ستنتشر فى ربوع مصر.

ولابد أن العائلة المقدسة، وهى فى سعادتها بنعمة الله عليها .. قد تذكرت ذات يوم بعيد، ما كان من أمر هاجر المصرية زوج جدهم إبراهيم الخليل .. حين اصطحبها وابنها إسماعيل، ومضى بهما إلى برية بعيدة .. فى مكة .. حيث لا ماء ولا حياة .. حتى إذا أدركت هاجر ظمأ وحيدها .. أسرعت إلى سقاء الماء، فوجدته خاليا من قطرة ماء!! وراعها ابنها وهو يضرب الفراغ بقدميه .. يصرخ من شدة العطش، فراحت تبحث له عن ماء، فما وجدت حولها إلا الرمال والصخور والحصباء، وما عرف عن هذه أنها تبض ماء .. يومها صعدت إلى الصفا تناجى ربها، فإذا هى ترى لجة ماء عند المروة، فهرولت إليها مسرعة، فما تكاد تصلها حتى أدركت أن ما رأته ليس إلا سرابا يحسبه الظمآن ماء، وتجرى بين الصفا والمروة مسرعة حينا، وبطيئة حينا آخر عدة أشواط .. حتى إذا أصابها اليأس .. عادت إلى ابنها تنتظر قضاء الله فيه، فإذا

هى تجد بئر ماء عند قدميه، فاغترفت منها ما شاءت، وروت ظمأ ابنها .. إنها نفس الظروف التى عاشتها هاجر تعيشها اليوم مريم .. وليكن ولدها عيسى ذكرى لجده إبراهيم، وصنوا لإسماعيل.

وبقيت العائلة المقدسة تحت الشجرة .. تنعم بما أفاء الله به عليهم من رزق .. أسبغه عليهم، وعلى غيرهم ممن كانوا يمرون بهذه المنطقة، فيجدون فى ماء النبع ما يعيد الفرحة إلى نفوسهم، وكثيرا ما كانت سالومة أو يوسف يذهب أحدهما إلى المدينة لقضاء ما يحتاجون إليه.

وفى أحد الأيام .. بينما أفراد العائلة قد هدأوا تحت ظل الشجرة .. مرَّ عليهم رجل اسمه قلوم، ساءه أن يجدهم فى هذا العراء بعيدا عن المدينة، ليس معهم ما يكفيهم من مئونة، ولا ما يستطيعون به أن يمنعوا عن أنفسهم الحر أو البرد، فأحس فى قلبه حبا لهم، وعطفا عليهم، وسعد بلقائهم، سعادة لم يألفها من قبل، وكانت سعادته أكبر بالنظر إلى الطفل عيسى، وهو يبتسم له فى إشراق ومودة .. ملأ قلبه نورا وأضاء جوانحه، ومريم التى تبدو ابتسامة الرضا على وجهها المضىء، فأصرَّ الرجل على اصطحاب العائلة إلى داره، ليكونوا ضيوفا تحت رعايته، ولينعموا من نعمه.

وهكذا قُدر للعائلة المقدسة أن تعيش فى كنف رجل مصرى كريم، ليأنسوا بأسرته التى يظللها الوئام والمحبة.

كان قلوم رجلا ميسورا .. منحه الله بسطة فى الرزق،

ومنعة بين أهله وقومه فى قريته، وكانت داره ملجأ للكثيرين من الفقراء والمساكين وطالبى الحاجات .. يلجأ إليها الجميع، فيجدون عند صاحبها ما يحقق لهم آمالهم، كأنما أسبغ الله عليه من نعمائه، ليستمتع بها المحتاجون، كما كانت داره كعبة يفد إليها الكثيرون من أهل قريته والقرى المجاورة، للتشاور فيما يعن لهم من شئون حياتهم، وحل ما غمض عليهم من مشكلات .. يجدون عند الرجل من النصائح ما يصلح حالهم، ويعيد إلى المتخاصمين منهم التسامح والمحبة، فقد كان شيخا حكيما أنضجته التجارب، وعرك كثيرا من السنين، وزادت البركة فى دار قلوم بفضل العائلة المقدسة، ومعها زاد عدد الوافدين إليها من المساكين والمحتاجين.

لكن أمرا ما وقع .. أحزن الرجل كثيرا ..

كان قلوم يحتفظ فى خزانة داره ببعض المال .. ربما كان خاصا به، أو أمانات أودعها عنده الواثقون فيه ..وكانت هذه الخزانة فى جدار عال فوق كوة إحدى حجرات الدار.. بعيدا عن الأيدى أن تصلها .. لكن الرجل استيقظ ذات صباح، فإذا ماله قد سرق من الخزينة، وأدهشه وأحزنه أن يكون للص قدرة على الوصول إلى هذا المكان العالى، وكيف يحدث له هذا، وهو لم يبخل على أحد بالمساعدة، وحزنت مريم ويوسف لما أصاب الرجل الكريم، وساءهما أن يحدث له ذلك، وهما فى ضيافته .. ولم يجدا منه إلا كل حب وكرم.

ولمح الطفل عيسى ما بدا على وجه أمه من حزن لما أصاب

الرجل، وقد انسحبت نظراتها إليه، كأنها تستلهم منه سر ما حدث، فقال لها عيسى:

- أيحزنك أمر الرجل يا أماه؟

- كيف لا وقد أكرم الرجل وفادتنا، وما وجدنا منه ومن أهله إلا كل خير.

- فهل تسعدين إن تكشفت الحقيقة، وعرف الرجل من سرقوه؟

- كم يسعدني هذا .. لكن .. كيف السبيل إلى ذلك، ورواد الدار كثيرون، وليس فيهم من يستطيع الوثوب إلى هذا المكان حيث أموال الرجل؟!

قال عيسى في ثقة:

- إن شاء الرجل أن يعرف من سرقه، فليجمع في داره كل الفقراء والمساكين الذين زاروه بالأمس.

ودهشت مريم لما يقوله عيسى .. ولكنها لا تملك إلا أن تطلب من قلوم أن يفعل، فلعل بركة ابنها تكون طريقا إلى معرفة السارق، فلما أصبح الصبح من غد .. اجتمع الفقراء والمساكين في الدار .. وأقبل عيسى ينظر إليهم واحدا واحدا بعد الآخر يتفحص وجوههم، ثم اقترب من رجلين أحدهما: أعمى والآخر مقعد، وأمر الأعمى أن يحمل المقعد على كتفيه .. حتى إذا فعل .. طلب منه أن ينهض بمن يحمله .. لكن الأعمى، وقد أفزعه الأمر قال:

- أنا رجل ضعيف لا أستطيع النهوض، وفوق كتفى هذا الحمل الثقيل الذى ينوء به كاهلى.

لكنه تحت إصرار الحاضرين .. نهض واقفا .. حتى استوى بمن يحمله، فكان رأس المقعد فى مواجهة كوة الحجرة، والتى تعلوها خزانة صاحب الدار.. قال عيسى للمقعد:

- فمد يدك أيها الرجل كما فعلت بالأمس.

ثم نظر عيسى إلى قلوم والحاضرين معه، وقد ألجمتهم المفاجأة، وقال له:

- هكذا فعل الاثنان بالأمس، وسرقا ما فى الخزينة.

وأعاد اللصان المال لصاحبه بين دهشة الحاضرين وإعجابهم ببركة الطفل الصغير، وكان لهذا الحادث وقع كبير فى عيون كثير ممن يقطنون هذه المنطقة .. فزادت محبة الناس للعائلة المقدسة، وخاصة الطفل عيسى الذى كانوا يطلقون عليه الطفل العبرانى، بعد أن علموا أنه وأسرته من فلسطين، وسعدت مريم بما فعله ابنها، وازداد قلوم تمسكا ببقاء العائلة المقدسة ضيوفا فى داره .. كثيرا ما حاولت مريم أن يغادروا تل بسطة إلى مكان آخر، ولكن قلوم كان يرفض بإصرار، ويصر على بقائهم .. سعيدا بهم، وهم أكثر سعادة بما يجدونه من محبة وأمان، كأن الله قد عوضهم عن أهلهم بخير منهم، وآمنهم من خوف .. وامتلأت قلوبهم رضا، فما يكفون عن الصلاة لربهم.

حتى كان ذات يوم ..

أشرق الكون بنور من الله على مدينة بويسطة، فمسح عنها غبار الظلام، وألبسها ثوبا فضيا جميلا، فما هى إلا ساعة أو بعضها .. حتى ازدحم المعبد بالكثير من الناس الذين توافدوا إليه من المدينة ومن القرى المحيطة بها، فقد كان اليوم هو أحد الأعياد الدينية التى يحتفل فيها المصريون بآلهتهم، وتناثرت فى المعبد تماثيل كثيرة للقطة السوداء التى كان أهل المدينة يقدسونها، ويحتفلون بها، ويقدمون لها القرابين، ويقيمون الصلوات، وعلت فى المعبد أصوات التراتيل والدعوات وطالبى البركة .. هكذا اعتاد المصريون أن يفعلوا .. لكل مدينة أو منطقة إله أو إلهة .. تجسد فى صورة تمثال.

فى هذا اليوم -لأمر شاءه الرب- خرجت مريم تصحب عيسى .. ربما كان ذلك للتنزة، أو للتعرف على معالم المدينة، أو لعله كان لقضاء بعض الحاجات للعائلة، فشاهدت الجموع تتقاطر إلى المعبد، ودفعها حب الاستطلاع أن ترى ما يفعله المصريون فى عيدهم .. كانت تمسك فى يدها ابنها، فما كادت تدخل معه المعبد .. حتى تساقطت تماثيل القطة السوداء، وهوت فى صحن المعبد .. تكسرت، وتناثرت أشلاؤها، واختلطت بالنبيذ المسفوح وبلحوم القرابين ودمائها، وفزع الناس مما شاهدوا، وقد أدهشتهم المفاجأة، فليس لهم بما حدث عهد، وما ألفوا فى آلهتهم إلا الصمود للعواصف والرياح العاتية، وأسرع الكثير منهم يغادرون المعبد، وقد ملأهم الذعر!!

وبلغ الخبر حاكم المدينة، فاستبدت به المخاوف، وأحزنه أن تتساقط آلهة مدينته دون غيرها من الآلهة الأخرى .. لابد أن الآلهة غير راضية عنه، رغم ما قدم لها من القرابين، مما دفعه إلى أن يذهب هو ومن حوله في هذا الأمر مذاهب شتى لأسباب ما حدث .. حتى كاد بعضهم يفقدون الثقة بآلهتهم التي تناثرت دون أن تحمي نفسها، وكان على حاكم المدينة أن يبحث عن أسباب ذلك، فقد كان يخشى أن يصل الخبر إلى الوالي الروماني، وما يدري ماذا يكون مصيره .. فاستدعى كهنة المعبد، فأتوا إليه مسرعين .. تسبقهم مخاوفهم، ويبدو على وجوههم الحيرة .. وكان أحدهم يراقب مدخل باب المعبد في ذلك اليوم، فأنبأ حاكم المدينة أن ما حدث كان بسبب دخول الطفل العبراني القادم من فلسطين، والذي يعيش مع أسرته في بيت قلوم، وراح الكاهن يحكي لحاكم المدينة بما يعرفه عن العبرانيين الذين يؤمنون بشريعة موسى في وجود إله واحد، وينكرون الآلهة المصرية، وما كاد الكاهن يلقي لحاكم المدينة بما لديه من معلومات .. مؤكدا أن ذلك بسبب الطفل، حتى أمر بالقبض على العائلة كلها، والفتك بهذا الطفل الذي أضاع على المصريين بهجة عيدهم، ونشر الخوف بين الناس، وشتت أفكارهم،وعلم قلوم بما انتواه حاكم المدينة، وخشي ومن حوله أن يصل الخبر إلى الوالي الروماني، فقد كانت الصلة بين مصر وفلسطين وثيقة في تلك الأيام، كلاهما يخضع للسيطرة الرومانية بعد هزيمة الإغريق، وإذا كان هيرودس في فلسطين يخضع لمشيئة سيده أغسطس

قيصر رومان، فقد كان نظيره (ثوارنيوس) فى مصر يأتمر بأوامر أغسطس هو الآخر، فكلا الحاكمين تربطهما صلة، وتجمعهما منفعة أو مصلحة مشتركة، وكل منهما يسره أن يحقق للآخر ما يطلبه، وليس من الصعب على هيرودس، وقد أحقده أن يفلت منه أفراد العائلة أن يطلب من والى مصر القبض على الطفل، وإعادته إلى فلسطين، ليقتص منه.

كل هذه المخاوف .. دفعت قلوم -الرجل الطيب الكريم- أن يسرع إلى داره، فيخبر مريم ويوسف، والألم يعتصر قلبه .. والحزن يمزقه، وأن عليهم للحفاظ على حياة الطفل أن يغادروا تل بسطة.

فما كادت الشمس تسعى إلى مغربها، وجن الليل، ونشر أرديته السوداء على المدينة .. إلا من نقاط نور ضعيفة ترسلها النجوم، وفرض الهدوء والصمت على كل شىء، واضطر الناس إلى مضاجعهم .. حتى غادرت العائلة المقدسة دار قلوم(١) بعد أن باركها عيسى ودعا لصاحبها، وقد حمدوا للرجل صنيعه وشكروا له فضله، ثم كان الوداع بين أفراد الأسرتين .. لم يستطيعوا أن يمسكوا دموعهم فى مآقيهم، وهم يحتبسون مخاوفهم وأحزانهم، فما كان هذا الفراق عن رغبة أحد منهم، ولكنه الإذعان لمشيئة شاءها الرب.

وهكذا مضت العائلة المقدسة مغادرة تل بسطة ليردوا موردا آخر من أرض مصر الواسعة.

---

(١) على أنقاض هذه الدار أقيمت كنيسة العذراء مريم التى ما تزال باقية حتى الآن فى تل بسطة.

(٧)

مضت العائلة المقدسة في طريقها .. نحو الجنوب .. يغذون الخطو، خوفا من أن يلحق بهم رجال حاكم مدينة تل بسطة، حتى وصلوا إلى (المحمة[١]) ولكنهم لم يمكثوا فيها طويلا، فغادروها .. متجهين نحو الشمال الشرقي، يواصلون السير نهارا والسرى ليلا، حتى وصلوا إلى مدينة بلبيس[٢]، وكان التعب قد بلغ بهم أشده، فاستراحوا تحت شجرة.

---

(١) المحمة: هي الآن مسطرد، وتبعد عن وسط القاهرة بحوالي ١٠ كم، وكلمة المحمة تعني مكان الاستحمام، ويرجع سبب تسميتها بهذا الاسم إلى أن العائلة المقدسة في طريق عودتها إلى فلسطين، مرت مرة ثانية بهذا المكان .. حيث أنبع الله على يد الطفل عيسى عين ماء ما تزال المياه تتدفق منها حتى الآن، ومن هذه المياه استحم الطفل، وغسلت أمه ملابسه. راجع الفصل (١٦) من هذا الكتاب.

(٢) بلبيس بفتح الباء أو ضمها من المدن القديمة (بربيس) كانت جزءا من أرض جاسان (جوش) التي سكنها العبرانيون .. اسمها بالقبطية Belbes وهي الآن أحد مراكز محافظة الشرقية، تبعد عن القاهرة حوالي ٥٥ كم، وكانت تقع على الطريق بين فلسطين ومدينة عين شمس، ومعروف أن هذه المدينة مر بها عمرو بن العاص عند فتحه لمصر.

كـانت هـذه الشـجرة[1] كبـيرة وعاليـة .. امتـدت أغصانـها وتشـابكت فروعـها، واكْتـنَزت بأوراقـها، فحجبـت أشـعة الشـمس عمـا تحتـها، وكـان الوقـت صيفـاً قائظـاً، فاسـتندت سـالومة إلى جـذع الشـجرة، وتوسَّـد يوسـف عصـاه وبعـض متاعـه، وراح الاثنـان فـى نـوم .. استسـلما لـه .. يطلبـان الراحـة .. بينمـا بقيـت مريـم تعنـى بطفلـها .. تضمُّـه إلى صدرهـا .. تُشْـبعه مـن حنـان أمومتـها بقـدر مـا منحـها الله .. ترنـو بنظـرات الأمـانى إلى مسـتقبل تريـد أن تعيشـه.

صـور كثـيرة لأحـداث عاشـتها مريـم .. تـراءت أمامـها فـى تلـك اللحظـات .. يسـعدها بعضـها ويقلقـها البعـض .. حتـى إذا أجـهدها طـول التفكـير.. لعـب الغمـض بعينيـها .. اقْتطَـع لحظـة مـن يقظتـها، فغفـت عيناهـا لحظـة -علـى غـير رغبـة منـها- فلمـا اسـتيقظت مـن غفوتـها، ألقـت بنظرهـا فـى لهفـة علـى ابنـها .. تدفعـها عاطفـة الأمومـة التـى تمـلأ صدرهـا، فـإذا هـو يلعـب حولهـا، وقـد راح يخـط الأرض بقطعـة مـن عصـا .. خطوطـاً علـى شـكل دائـرة .. كأنـه يبحـث فيـها عـن بدايتـها ونهايتـها، لكنـها مـا كـادت تتفحصـه .. حتـى أدركـت أنـه قـد فقـد حـذاءه،

---

(١) هـذه الشـجرة عرفـت فيمـا بعـد بشـجرة العـذراء مريـم، زارهـا نـابليون فـى حملتـه على مصـر (١٧٩٨-١٨٠١) وأراد قطعـها وإرسـالها إلى فرنسـا، ومـا كـاد أحـد رجالـه يضـرب جـذع الشـجرة بمعولـه، حتـى نزفـت منـها دمـاء غزيـرة، فـاضطر نـابليون إلى الإبقـاء عليـها فـى مكانـها، وقـد بقيـت هـذه الشـجرة حتـى سـقطت سـنة ١٨٥٠.

فأسرعت إلى متاع العائلة، فبدا مبعثرا .. قد عبث به أحد المارين، أملا أن يسرق منه شيئا، فلم يجد ما يستحق السرقة .. فأخذ حذاء الطفل .. كم أحزنها ذلك كثيرا(١) واستيقظ يوسف وسالومة ليشاركا مريم أفكارها، وليطمئنها يوسف، ويهدئ من مخاوفها.

وبقيت العائلة المقدسة تحت الشجرة عدة أيام، وكانت بينهم أحاديث كثيرة، وذكريات عن تلك المنطقة التى يقيمون فيها، والتى كانت تعرف فيما مضى بأرض جاسان .. حيث أنزل نبى الله يوسف الصديق أباه يعقوب وأخوته هذه المنطقة، لتكون موطنا للعبرانيين الذين تكاثر عددهم .. ولابد أن الحديث قد طال بهم، ليتذكروا ما كان من أمر مولد موسى، وكيف ألقت به أمه فى اليم، والتقطه آل فرعون، ليكون إليهم فيما بعد رسولا .. يدعوهم إلى التوحيد، وهؤلاء السحرة الذين فشلوا فى مواجهة معجزة موسى .. حين ألقى عصاه، فإذا هى حية تلقفت ما خُيِّل إليهم من حبالهم أنها تسعى .. هكذا طابت بهم الأحاديث، وهم تحت الشجرة فى بلبيس.

وعلم أهل بلبيس والقرى المحيطة بها بوجود العائلة المقدسة بينهم، وكانت أخبار ما حدث فى معبد تل بسطة

---

(١) تروى بعض الروايات أن مريم بكت كثيرا، وتساقطت دموعها غزيرة، فكان عيسى يحوط على الدموع بعصاه فى دائرة ويقول: هنا سيكون بئر ماء يشفى المرضى.

ودار قلوم، وبركات الطفل العبرانى كما كانوا يطلقون عليه، قد وصلت إلى الناس، فتزاحموا عند الشجرة .. يريدون أن يسعدوا ببركات الطفل، وبلقاء العائلة المقدسة .. وخشيت مريم ويوسف أن يصل الخبر إلى حاكم مدينة تل بسطة، وكان ما يزال يبحث عنهم، لذلك انتهزت العائلة المقدسة الازدحام الشديد، وانسحبوا مبتعدين عن بلبيس .. متجهين نحو الشمال الغربى فى طريقهم، حتى وصلوا إلى مدينة منية سمنود.

(٨)

كتب الله فى لوح مقاديره على كل إنسان خطوه وخطاه التى يمضيها فى دروب الحياة، منذ خروجه من بطن أمه، حتى يتوسد لحده، وليست قيمة هذه الخطوات بعددها أو باتساعها، لكنها بقدر ما اكتسبه صاحبها من معرفة، وما أصاب منه الآخرون من سعادة وأمن وسلام، فكم من خطوات خطاها أصحابها على أديم الثرى، فما أفادوا، وما استفادوا منها.

ولم تكن رحلة العائلة المقدسة فى أرض مصر مجرد خطوات خطوها للترفيه أو لفائدة ذاتية لهم، لكنها كانت خطوات بمشيئة الله .. كتبها عليهم، لخير البشرية، فقد كانت بداية طريق نحو الهداية، وخروج الإنسان من جهالة الشرك والعبودية للبشر، إلى التحرر من الرق، والدعوة إلى السلام والمحبة، والعودة إلى عبادة الخالق وحده الذى بيده الحياة، والذى يستحق أن يُعبد دون السادة الحكام.

ربما كانت هذه الخطوات هروبا من بطش هيرودس، ومنجاة من شر انتواه نحو الطفل الصغير عيسى، ورحمة بأمه، فكانت كلمات الرب التى أمرتهم بالرحيل إلى مصر .. حيث يجدون الأمان والسلامة.

كان من الممكن للعائلة المقدسة، حين وصلت إلى مصر أن

تقيم في مكان ما .. لا تبرحه، حتى ينتهى الخطر، لتعود إلى فلسطين، لكن الله أراد لعيسى أن تمتد خطواته، وتتباعد به المسافات، وتتسع المساحات .. تستقر العائلة في بلدة أو مدينة، ثم يغادرونها إلى غيرها، لتعم البركة وتكبر.

من أجل هذا .. شاء الله للعائلة المقدسة أن تغادر بلبيس، وتتباعد بهم الخطوات نحو الشمال، ليصلوا إلى مدينة صغيرة هى ميت جناح (منية سمنود[(١)]) مارين فى طريقهم بالعديد من القرى والمدن القديمة .. حتى إذا وصلوا إلى هناك .. جلسوا -كما تعودوا- إلى ظل إحدى الأشجار، فما كان لهم مقام يلجأون إليه إلا ظلال الشجرة، فيما عدا بعض الأماكن التى استضيفوا فيها، كما حدث فى تل بسطة، أو اختبئوا فى كهوفها، كما سيأتى بعد.

ما كاد أفراد العائلة المقدسة يجلسون تحت ظل الشجرة[(٢)] حتى شعروا بنسمات رقيقة تمسح بكفها الندى على نفوسهم المتعبة بعد رحلة طويلة، فما هى إلا ساعة أو بعض الساعة، حتى استعادوا راحتهم وأمنهم، ولأن النيل يقترب من هذه المدينة، فقد كانت فرصة لهم ليروه، ولينعموا بمائه العذب الذى يذكرهم بمياه نهر الشريعة (الأردن) فى

---

(١) منية سمنود هى الآن إحدى القرى التابعة لمركز أجا بمحافظة الدقهلية، تبعد عن القاهرة بحوالى ١٠٠ كم، ويقترب موقعها من نهر النيل (فرع دمياط حاليا).

(٢) بنيت مكانها كنيسة أبانوب التى يحج إليها المسيحيون يوم ٣١ يولية من كل عام.

فلسطين، ولاشك أنهم، وهم فى طريقهم ما بين بلبيس ومنية سمنود التى هى جزء من الدلتا، قد مروا على كثير من مظاهر الحياة والجمال فى مصر.

فهذه جنات وارفة، وحقول خضراء .. امتدت على مدى ما تصل إليه أبصارهم .. تروى من مياه النيل الذى حبا الله به مصر، ليكون رسول رخاء، وسبب استمرار الحياة على أرضها.

والزوارق والمراكب بأشرعتها كأجنحة طيور بيضاء.

والحدائق المنضورة على ضفتى النيل التى تذكرهم بحدائق التين والزيتون والكروم فى ديارهم.

والنبت الأخضر وهو يشق الأرض السوداء فى إصرار، ليخرج إلى الحياة، وسنابل القمح التى تتطاول إلى السماء كأنها ضفائر مجدولة من الذهب، وأصوات العصافير وهى تشدو كأنها تشكر الله على ما وهبها من أجنحة .. تحلق بها حرة فى السماء الواسعة.

وجداول الماء تنساب وسط الحقول كحواشى فضية لبسط خضراء.

وجمال الطبيعة فى أوقات الأصائل والأماسى، ومطلع الشمس حين يكون الصبح، ومغربها حين يكون المساء، وهى تغرب فى جلال، ولم يبق من أشعتها إلا غرر تلمع على سعف النخيل وذوائب الأشجار.

كل هذه الصور.. كانت كتابا مفتوحا أمام عينى الطفل

عيسى، يقرأ فيه دليل قدرة الله وبديع صنعه.

كم سعد أفراد العائلة المقدسة بالفتيات الصغيرات، وهن ذاهبات إلى النيل أو أحد جداوله .. يملأن جرارهن .. تمشين فى خطوات فساح، أو يسعين سعى النسيم فى رقته، مجلوة وجوههن كوجه الربيع .. على شفاههن ابتسامة مضيئة تفتر ثغورهن افترار الأكمام عن الأزهار، تلمع فى عيونهن المكحلة آمال عريضة، تتراءى أمامهن .. يتمنين تحقيقها فى غد أكثر إشراقا.

ومظاهر السعادة التى اعتادها المصريون فى أفراحهم .. العذارى .. وقد بدا ورد الصبا فى خدودهن، وأكفهن المخضوبة بالحناء، وهن يصفقن ويغنين للعروسين.

والفلاحون، وهم يسرعون قبل مشرق الشمس إلى حقولهم .. يقضون سحابة يومهم فى نشاط .. يروون أو يزرعون أو يحرثون أو يحصدون .. سعداء بقدر ما تساقط منهم من عرق .. حتى إذا أجهدهم التعب .. هجعوا تحت ظلال شجرة فوق العشب الأخضر، وهم أكثر سعادة من هؤلاء، الذين ينامون على فراش وثير .. يغترفون من مياه نيلهم بأكفهم .. يشربونه هنيئا - فإذا مالت الشمس بالمغيب، عادوا إلى دورهم .. يقضون بعض الليل فى صحن دار أحدهم، ليناقشوا شئون حياتهم .. يسامر بعضهم بعضا فى مودة وإخاء، لولا ما كان

يقلق خاطرهم لما أصاب وطنهم من ظلم عل يد الرومان[1] الذين سيطروا على مصر، واستغلوا خيراتها، يجمعون القمح، ويرسلونه إلى روما .. هكذا كما كانوا يفعلون فى فلسطين، إنها شرعة الغاصب المعتدى الذى تنكب به الشعوب .. حتى جند الرومان .. كثيرا ما استغلوا سلطاتهم، فراحوا ينتزعون الرجال من أحضان ذويهم .. أمهاتهم أو زوجاتهم أو أحبائهم!!

صور كثيرة للحياة فى مصر عاشها أفراد العائلة المقدسة، ما تشابه منها مع ما فى فلسطين، وما اختلف.

ولأن الرحيل مكتوب، فقد غادروا منية سمنود، أقلهم قارب شراعى، وعبروا نهر النيل (فرع دمياط حاليا) إلى الضفة الغربية .. حيث بلغوا مدينة سمنود[2] فقابلهم أهلها بالمودة والمحبة، فقد كانوا يعلمون أخبار تلك البركات التى باركها الطفل عيسى فى كل مكان زارته العائلة .. تل بسطة، وبلبيس، والمحمة .. لذلك هرع إليهم كثير من أهل المدينة والقرى المجاورة، يلتمسون بركة الطفل العبرانى، ويسعدون بمحبة العائلة، ويبالغون فى إكرامهم.

---

(١) استولى الرومان على مصر بعد انتصار اكتافيوس على أنطونيو وكليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق.م وبذلك انتهى حكم البطالمة، فأصبحت مصر ولاية رومانية.

(٢) سمنود: مدينة قديمة ترجع إلى عصر الفراعنة، وهى الآن أحد مراكز محافظة الغربية.

وبقيت العائلة المقدسة في سمنود ما شاء الله لها أن تبقى بين ظهراني أهلها .. حتى شاء لهم الرب أن يعاودوا السير خطوات جديدة إلى مكان آخر، فغادروا سمنود .. مولين وجوههم نحو الشمال، يحطون رحالهم حينا، ليستريحوا، ثم يواصلون السير أحايين كثيرة، وهم يدعون الله أن يهديهم إلى ما شاء لهم، وأن يوفقهم في خطواتهم التي كتبها عليهم، سعداء أن بدلهم الله بأرضهم أرضا طيبة، وأهلا بأهلهم، وأمنا في غربتهم. وهكذا مضوا في الطريق .. مارين بكثير من القرى والمدن في عرض الدلتا، حتى وصلوا إلى مدينة سخا[1].

وفي سخا استقرت العائلة على مقربة من أحجار قديمة هي بقايا مدينة ترجع إلى عصر الفراعنة، وقد اعتاد الطفل عيسى أن يقف على واحدة من هذه الصخور[2] .. لعله كان في وقفته هذه يتطلع إلى السماء .. ينظر فيها آيات قدرة الرب حوله .. أو يسأله أن يهدي قومه إلى طريق الصواب .. فما مضى غير قليل حتى تركوا مدينة سخا .. متجهين نحو

---

(١) سخا: اسمها باللغة القبطية ببخاسوس أي قدم المسيح، وهي الآن أحد مراكز محافظة كفر الشيخ.

(٢) ما تزال قدم المسيح مطبوعة على هذه الصخرة التي ظلت مختفية طوال القرون السابقة، ولم يعثر عليها إلا منذ ١٤ عاما، وفوق هذه الصخرة أقيمت كنيسة في القرن الرابع الميلادي.

الشمال، فوصلوا إلى قرية دير المغطس[1] على غير بعيد من بحيرة البرلس، وفى هذه المنطقة البعيدة عن النهر .. فجر الله على يد الطفل عيسى نبع ماء عذب .. أصبح موردا للكثيرين من المقيمين بها أو العابرين لها.

وهكذا بقيت العائلة المقدسة فى رحاب الدلتا .. ولكن الذى لاشك فيه أنهم كانوا فى شوق إلى ديارهم .. يرتقبون يوم يأمرهم الرب بالعودة إلى أهلهم.

ترى .. متى يحقق الرب لهم ما يأملونه؟!

---

(١) يحج المسيحيون فى يوم ٢٢ من كل عام إلى دير المغطس مثل حجهم إلى كنيسة القيامة، وعيده فى بشنس، ويسمونه عيد الظهور.

(٩)

تنبت الحياة على وجه الأرض متى تهيأت لها أسباب النمو، فيجد النبات من التربة الخصبة والمياه العذبة، ما يسمح للبذرة أن تنبت، وللنبت أن يخرج إلى الوجود .. عودا أخضر، وللعود أن ينمو ويستقيم على وجه الأرض، ويكبر ويزهر ويثمر، ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه، ومن أجل هذا كان فضل الله على الدلتا فى مصر بما هيأ لها من سبل الحياة، فغدت عامرة بالحياة والسكان .. وهكذا مضت العائلة المقدسة سعداء بما يسَّره الله من خيرات ومحبة الناس لهم بفضل بركة الطفل الصغير التى أودعها الله فيه.

حتى كان ذات يوم ..

استيقظ يوسف من نومه، وقال لمريم وسالومة:

- إنى أشعر كأن هاتفاً يدفعنى إلى الرحيل من هنا .. إلى مكان آخر .. بعيدا.

قالت سالومة:

- ولم الرحيل يا يوسف، وقد أجهدنا طول الطريق؟ ولماذا لا نبقى هنا .. حتى يأمرك الله -حسب وعده لك- بالعودة إلى فلسطين .. أما كفانا ..

فقاطعها يوسف قائلاً:

- إنها مشيئة الرب يا سالومة .. إنما نخطو خطواتنا حيث شاء، ومتى شاء.

وقالت مريم:

- ثقي في الرب يا سالومة، فقد يكون من الخير لنا الرحيل متى شاءه الله لنا.

فما هي إلا أيام قليلة .. قضتها العائلة المقدسة في الاستعداد للرحيل، وتزودوا بما استطاعوا لرحلة طويلة، ثم غادروا قرية دير المغطس، وعبروا النيل[1] في قارب شراعي إلى الضفة الغربية، ثم اتجهوا نحو الجنوب والجنوب الغربي في طريقهم إلى البادية .. حيث الصحراء الغربية من مصر.

وإذا كان خير الطرق ما عرفت بدايته ونهايته، فإن طريق العائلة المقدسة لم يكن معروفا نهايته، لأنهم ماضون بمشيئة الله .. يوجههم لخير شاءه، وهم واثقون بهدايته لهم.

مضت العائلة المقدسة في طريقهم .. يعبرون الأودية، ويصعدون الروابي من نجد إلى نجد، ومن شرف إلى غور.. يدورون حول الآكام والصخور التي تعترض طريقهم، ويخوضون الرمال التي بدت كموج البحر على مدى ما تصل إليه أبصارهم .. حتى إذا أصابهم التعب .. التمسوا صخرة كبيرة، وجلسوا بجوارها .. يحتمون بظلها من حرارة الشمس، فإذا كان الليل ببرودته .. عمدوا إلى بعض الحشائش الجافة،

---

(١) فرع رشيد حاليا.

فأشعلوا فيها النار، يلتمسون فيها الدفء، وطال بهم الطريق .. مرتحلين أو مستريحين .. حتى وصلوا إلى برية شهيب[1] التى هى جزء من الصحراء الغربية، ثم تابعوا المسير حتى وصلوا إلى جبل النطرون الذى يقع شرق وادى النطرون[2].

كانت ظروف الحياة فى هذه المنطقة تختلف كثيرا عن الدلتا، فلا حياة فيها ولا نبات ولا سكان؛ لأن الطبيعة شحت بمائها عليها .. ولذلك سعدوا ذات يوم حين بدت فى السماء سحابة سوداء هبت عليها ريح باردة، بعثرت أجزاءها، وتساقط منها بعض أمطارها .. كثيرا ما أعجبهم مشرق النهار حين تعلو الشمس فى الأفق، ومغربها، وهى تختفى فى موكب جلال .. تلملم أشعتها، ربما سألت سالومة نفسها، لماذا شاء الله أن تصل العائلة المقدسة فى رحلتها إلى هذا المكان البعيد الخالى من الحياة .. وما كانت تدرى أن ذلك لأمر شاءه الله، لتحظى هذه المنطقة ببركة عيسى، لقدر سطره فى لوح مقاديره[3].

---

(١) برية شيهات أو شهيت ومعناها ميزان القلوب.

(٢) وادى النطرون كان يسمى وادى هبيب على بعد ٨٠ كم من القاهرة، وهو واد مستطيل طوله ٦٠ كم، ومتوسط عرضه ٦٠ كم، وهو منخفض عن سطح البحر بحوالى ٢٣ مترا .. تشغله بحيرات بقاعها رواسب سميكة من النطرون، هو الآن يتبع محافظة البحيرة.

(٣) أصبحت هذه المنطقة بعد دخول المسيحية مصر واضطهاد الرومان للمسيحيين ملجأ ومهربا للرهبان والفارين بدينهم، ولذلك امتلأت بالأديرة مثل: دير الأنبا بيشون، ودير أبو مقار، ودير السريان، ودير البراموسى فى ←

لم تمض العائلة المقدسة طويلاً فى هذه المنطقة، فارتحلوا منها بعد أن باركها عيسى، وباركتها مريم، واتجهوا نحو الجنوب الشرقى.

فبينما هم ماضون فى طريقهم .. خرج عليهم رجلان، واقتربا منهم، وسدًّا عليهم الطريق، وأقبلا على سالومة، وكانت تحمل صرة فيها متاع العائلة، فأمسك بها أحد الرجلين، وانتزع الآخر الصرة من بين يديها فى قسوة .. كان الرجلان لصين .. تابعا العائلة المقدسة منذ خروجهم من وادى النطرون، وسوَّل لهما شيطانهما أن الصرة بها متاع ثمين، فراحا يخطِّطان للحصول عليها، فما كادا يفعلان .. حتى أحسَّا بالندم، وحانت من أحدهما التفاتة إلى الطفل الصغير، فأحس فى قلبه هوى يدفعه إلى العودة إلى العائلة، فما اقترب من الطفل حتى بادله بابتسامته ابتسامة، كانت رسول سلام إلى قلب اللص، فأعاد الصرة بما فيها إلى سالومة، وكأن الله فتح مغاليق قلبيهما .. حتى أن أحدهما خانته دموعه، فبكى، كمن يحاول أن يغسل بها نفسه مما علق بها من أدران، وإذا كانت مريم سعيدة بعودة المتاع إليها، فقد كانت أكثر سعادة بتوبة اللصين.

وعادت العائلة المقدسة تمضى فى طريقها .. تودِّعهم

= عهد الإمبراطور الرومانى دقلديانوس والذى عرف عصره بعصر الشهداء بداية التاريخ القبطى، ويقال أن مجموعة كبيرة من رهبان هذه الأديرة قد التقوا بعمرو بن العاص عندما فتح مصر، وكتب لهم كتاباً حفظوه فى دير أبو مقار.

نظـرات الرجلـين، داعـين لهـم بالسـلامة .. حتـى إذا وصلـوا إلى الضفـة الغربيـة للنيـل، شـعروا بنسـمات رقيقـة تمسـح علـى وجوهـهم .. كأنـها تنسـيهم مـا عـانوه فـى الباديـة، فاسـتقلوا قاربـا شـراعيا، وعـبروا النيـل إلى الضفـة الشـرقية حتـى وصلـوا إلى مدينـة أون.

تـرى .. هـل امتـد بـهم البصـر ذات يـوم، فشـاهدوا أهـرام الجـيزة التـى بناهـا المصريـون؛ لتبقـى معجـزة علـى مـر السـنين!!

(١٠)

لم تستطع المذابح التى أقامها هيرودس فى بيت لحم وما حولها، أن تقنعه بزوال الخطر الذى كان يتوقعه، ولم يشف غليله ذبح عشرات الآلاف من الأطفال الأبرياء، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه أن القدر يقذف به وبأولاده الثلاثة إلى مستقبل مضطرب، تعصف به الأحداث .. وكثيرا ما قضى لياليه مثقلات بالسهاد، يتطلع إلى السماء علّه يجد سبيلا يطمئنه، وما كان للسماء أن تنصف الظالمين .. كثيرا ما كان يراقب النجوم فى أفلاكها، يحاول أن يستلهم منها طالعه، فما أطلعته النجوم على مستقبله، ولم تعد له الحياة خالصة، كما كانت من قبل، فقد خالطها الكدر وشابها الفزع، وعتمت له، كمن رزئ فى حظه، سواء ليله ونهاره .. صبحه ومساؤه .. يقظته ومنامه!!

حتى كانت ذات ليلة ..

جلس هيرودس بجوار نافذة حجرته، كما اعتاد أن يفعل، يفكر فى أمره، وقد ملأ الهم جوانحه، يصعد أنفاسه، ويمضغ أضراسه .. كان الليل قد انتصف، فاختلس من السهاد لحظة، غفت فيها عيناه، فسمع هاتفا يهتف به:

- إن الطفل الذى تطلبه .. ما يزال يعيش حتى الآن.

استيقظ هيرودس من غفوته فزعا، وغُمّ عليه، فقد تأكدت

ظنونـه، ومـا زالـت المخـاوف مـن المستقبل تلاحقـه، فمـاذا يفعـل لكى يقضى على هـذا الطفـل الـذى يـهدد ملكـه؟! وعـاوده الغمـض مـرة ثانيـة، فجـاءه صـوت الهـاتف ينـاديـه:

- إن الطفـل الـذى تبحـث عنـه .. مـا يـزال يعيـش حتـى الآن .. فـى مصـر.

كـانت مفاجـأة لهـيرودس، فلـم يكـن يتوقـع أن يبتعـد بـه الطريـق. لم يسـتطع أن يـهلك الطفـل، وهـو فـى فلسـطين، فكيـف يطلبـه وهـو الآن فـى مكـان بعيـد لا تصـل إليـه أيـدى رجالـه .. كـم يحيره السـؤال، ويشـقيه الفكـر.

فـى تلـك الليلـة كـانت أسـتير.. تراقـب سـيدها مـن نـافذة حجرتـها القريبـة منـه، فاتجـهت إليـه، وفـى يدهـا شمعـة مضيئـة، مـا كـادت تلقى بأشـعتها علـى وجهـه .. حتـى أدركـت مقـدار مـا يعتمـل فـى نفسـه.

كـانت أسـتير واحـدة مـن نسـاء القصـر، قـد نـاهزت الخامسـة والعشـرين مـن عمرهـا، وإن بـدت أسـن مـن هـذا، فقـد قاسـت الكثـير مـن ألـوان الشـقاء منـذ مـات أبواهـا .. لم تنعـم بطفولتـها مثـل غيرهـا مـن أترابـها، فـهامت علـى وجهـها بـلا مـأوى .. تضـرب فـى فجـاج الأرض الواسـعة .. معالمـها ومجاهلـها .. علـى غـير هـدى .. دون أن تجـد واحـة تتفيـأ بظلالهـا .. كـانت كنبتـة نضـرة تحـاول أن تشق طريقـها فـى الحيـاة مـن خـلال تربـة جدبـة .. ترويـها ميـاه آسـنة، أو كزهـرة جميلـة وسـط أحـراش كثيفـة. لم تجـد مـن يقـف إلى جوارهـا، يخفـف عنـها مـا تعانيـه مـن آلام

الوحدة وشظف الحياة، أو يمسح عنها أحزانها، أو يضمد جراح آلامها .. حتى التقطها أحد رجال هيرودس، وقد أسره جمالها، فألحقها خادمة فى قصر سيده، فما مضت بضع سنوات حتى كان جمالها طريقا إلى قلب سيدها .. يشعر بالأمان إلى جوارها .. يستريح لأحاديثها .. يتعرف على وقع خطواتها .. يطلب لقاءها كلما أهمه أمر، أو استوحشه الأمان .. حتى غدت مستودع أسراره، فسعدت هى بهذه الحظوة، واستطاعت أن تمس شغاف قلبه، واستمرأت رحيق الهناءة بجواره، وتفتحت أمام عينيها آفاق واسعة .. حتى لقد هيأت لها خواطرها أن ترقى إلى ما ارتقت إليه سميتها[١] ذات يوم.

اقتربت أستير من سيدها، وفى نبرة رقيقة حانية .. قالت:

- مولاى .. أراك الليلة مسهدا!!

فالتفت هيرودس إليها، وقال:

- بل وكل ليلة يا أستير.. حتى النجوم .. كانت لى رفيق سهدى .. آنس بها .. كنت أساهرها وتساهرنى، حتى مللتها

---

(١) سميتها: هى أستير من بنات إسرائيل .. رباها ابن عمها مردخاى بعد موت أبيها .. استطاعت بمكرها ودهائها أن تتقرب إلى الملك أخشويروش ملك الفرس، وتزوجها دون أن تخبره بجنسيتها أو ديانتها، وذات يوم حاول وزيره هامان أن يقنعه بقتل كل اليهود فى مملكته .. هؤلاء الذين أسرهم الملك بختنصر، وأخذهم إلى بابل .. لكن أستير استطاعت بحسن حيلتها أن تقنع الملك بالعفو عن اليهود (لها سفر باسمها من أسفار العهد القديم).

وملتنـي .. وأحسـب أن السـماء تثـأر منـي .. تنـاصبني العـداء .. أمـا كفـي الأقدار مـا ألحقتـه بي من مخـاوف وأفكـار سـوء؟!

- فـهل لي أن أفعـل مـن أجلـك شيئا يـا مـولاي؟!

- ومـاذا تستطيعين أن تفعلـي يـا أسـتير، فـهل لـك أن تعيـدي الغمـض إلى جفنـي ..؟!

- ....؟!

- وهـل تسـتطعين أن تنبئيني بمـا يخفيـه الغـد لي؟!

- فـدع الغـد يـا مـولاي، فقـد غمـض الغـد عـن كـل النـاس، لا يبـوح لأحـد بسـره.

- لكنـي أخشـاه يـا أسـتير.

- فـهل لـك بكـأس من شـراب ينسـيك مخـاوفك؟

- ومتـى كـان للشـراب أن ينسـيني .. لخـير لي أن أبحـث عمـا يعيـد الأمـان إلى نفسـي.

- فمـاذا يقلـق مـولاي، وكـل مـا حولـك يمنحـك السـعادة؟!

وسـكت هـيرودس قليـلا، وراح يسـترجع ذكريـات تتدفـق صورهـا أمـام عينيـه، ثـم قـال:

- هـل تذكريـن يـا أسـتير ذلـك الطفـل الـذي قيـل إنـه ولـد لعـذراء؟

- أذكـره جيـدا يـا مـولاي، والـذي مـن أجلـه ذبـح رجـالك آلاف الأطفـال فـي بيـت لحـم ومـا حولهـا، ولاشـك أنـه واحـد منـهم.

- لا يا أستير.. الطفل ما يزال حيا، أخطأته سكاكين رجالى.

- فمُرْ رجالك، فليأتوا به، وليكن لك فيه ما تشاء.

- لكنه يعيش بعيدا يا أستير، إنه الآن فى مصر..؟!

- ....؟!

- وأخوف ما يخيفنى .. أن يعود إلىّ بعد سنوات .. رجلا .. يناصبنى العداء، كما فعل من قبل موسى .. إنى أشعر الآن كطائر علا فى الأفق، ثم ذهبت قوته، فهوى على الأرض مرخيا جناحيه!!

وتناثرت الكلمات على شفتى هيرودس، كأنما أصابته لوثة، وهو يقول:

- لا .. لن أكون فرعون موسى.

قالت أستير تهدئ من روعه:

- فدع عنك مخاوفك يا مولاى، فليست مصر بعيدة عنك.

- ولكن .. ليس لى سلطان عليها.

- أليست مصر واحدة من ممتلكات الدولة الرومانية، تخضع لمشيئة سيدى أغسطس، ويحكمها وال رومانى، يدين بالولاء لروما؟!

- هو كذلك يا أستير.

- فما عليك إلا أن ترسل ببعض الهدايا إلى واليها مع

رجالك، وتطلب منه أن يعيد إليك الطفل.

- كانت لى علاقة طيبة بالوالى السابق، روبيريوس الذى انتهى عهده .. تولى حكم مصر وال جديد هو ثورانيوس لا تربطنى به علاقة.

قالت أستير.. تشجعه:

- تستطيع ذلك بما ترسله من هدايا قيمة إليه، فالهدية خير طريق إلى المودة.

فما أسفر الصبح .. حتى أرسل هيرودس بعض رجاله وجنوده، يحملون الهدايا إلى والى مصر، ويطلب منه أن يساعدهم فى البحث عن الطفل الإسرائيلى الذى يعيش فى مصر، ليأتوا به: وقال هيرودس فى نفسه:

- ولن أكون فرعون موسى!!

فهل تنال النهر نيران الحرائق؟!

(١١)

كـان وصـول العائلـة المقدسـة إلى مدينـة أون (هليوبوليـس) مرحلـة جديـدة مـن رحلتـها الطويلـة فـى مصـر، لأن هـذه المدينـة كـانت من أهم المدن المصريـة القديمـة خـلال التـاريخ الطويـل، لمـا تمتـاز بـه مـن آثـار فرعونيـة ويونانيـة وورومانيـة، فضـلا عـن أنـها مـن المنـاطق المزدحمـة بالسـكان .. الحيويـة النشـاط .. صحيـح أن الإسـكندرية كـانت هـى عاصمـة مصر فـى ذلـك الوقـت .. إلا أن مدينـة (أون) تمتـاز أيضـا بموقعـها علـى الطريـق التجـارى بـين مصـر وفلسـطين، وهـى مدخـل مصـر مـن الناحيـة الشـرقية، وفـى شمالهـا كـانت تقـع القنـاة التـى تصـل النيـل بـالبحر الأحمـر والتـى كـان تعـرف بقنـاة سيزوسـتريس مـن قبـل، ممـا أعطاهـا مكانـة هامـة.

وحينمـا وصـل أفـراد العائلـة المقدسـة .. كـان عليـهم أن يسـتريحوا كعادتـهم، تحـت ظـلال شـجرة فـى منطقـة المطريـة، امتـازت هـذه الشـجرة[١] بـامتداد فروعـها وأوراقـها، فجلسـوا

---

(١) هـذه الشـجرة عرفـت فيمـا بعـد بشـجرة العـذراء مريـم، وقـد أراد الخديـوى إسمـاعيل قطعـها وإعطاءهـا هديـة للإمـبراطورة أوجينـى الفرنسـية، حـين جـاءت إلى مصر فـى حفـل افتتـاح قنـاة السـويس .. لكـن الإمـبراطورة رفضـت قطعـها، وفضلـت بقاءهـا فـى مكانـها، وقـد سـقطت هـذه الشـجرة سـنة ١٩٠٦ وخرجـت منـها شـجرة صغـيرة، هـى التـى مـا تـزال موجـودة حتـى الآن، قـام المجلس الأعلـى للآثـار بإقامـة سـور عـال حولهـا للحفـاظ عليـها.

تحتـها .. ينعمـون بظلالهـا ، ويتنسـمون ريحـا طيبـا تنسـيهم مـا عـانوه مـن مشـقة الطريـق فـى الصحـراء الغربيـة.

حتـى إذا اسـتعادوا راحتـهم .. أدركـوا حاجتـهم للميـاه، ليشـربوا، ويغسـلوا ملابسـهم، ولدهشـتهم .. رأوا الطفـل عيسـى يخـط الأرض بعصـاه فـى منطقـة قريبـة مـن الشـجرة .. سـرعان مـا تدفقـت منـها ميـاه غزيـرة .. فشـربوا منـها مـا شـاءوا، وغسـلت مريـم ملابـس طفلـها عيسـى، ثـم نـثرت الميـاه حـول الشـجرة، وهـم يحمـدون للـرب فضلـه وخـيره.

ومضـت الأيـام بالعائلـة المقدسـة عنـد هـذه الشـجرة .. ينعمـون بمحبـة النـاس، الذيـن أحسـوا فيـهم البركـة، وكثـيرا مـا كـانت مريـم تقضـى وقتـها ممسـكة بمغزلهـا، تغـزل خيوطـا مـن الصـوف، لتكـون ملابـس ليوسـف أو لعيسـى، ولا تنسـى أن تدعـو ربـها أن يحقـق آمـالهم بـالعودة إلى وطنـهم.

حتـى كـان ذات يـوم ..

اسـتيقظ أفـراد العائلـة المقدسـة ذات صبـاح، فأسـعدهم أن يجـدوا المنطقـة حـول الشـجرة قـد كسـتها الخضـرة، وأن نبـات البلسـم[1] يشـق الأرض فـى هـذه المنطقـة التـى لم تكـن تعرفـه مـن قبـل .. كـان ذلـك بسـبب الميـاه التـى غسـلت بـها مريـم ملابـس

---

(١) نبـات البلسـم مـن النباتـات طيبـة الرائحـة، كـان ينمـو فـى فلسـطين، ولم يكـن يعـرف فـى مصـر حتـى ذلـك اليـوم، وهـو مـن النباتـات دائمـة الخضـرة طـول العـام، لا تسـقط أوراقـه، لـه عـدة فوائـد: تخفيـف آلام الأسـنان، وفـى التطبيـب، كمـا يسـتخدم فـى الكنـائس.

ابنها وألقتها على الأرض حولها.

عُرفت مدينة أون بأنها كانت مركزا لعبادة إله الشمس (رع)، ولذلك أقيم فيها كثير من المسلات والمعابد الضخمة للعبادة وتقديم القرابين للآلهة، والأدعية والتراتيل، وفى أحد الأيام .. خرجت العذراء مريم .. تصحب ابنها، يجوبان أنحاء المدينة لأمر ما، فما كاد الطفل عيسى يقترب من أحد المعابد .. حتى انهارت جدرانه، وسقطت فيه تماثيل الآلهة، وتناثرت .. نفس ما حدث[1] ذات يوم فى تل بسطة .. لذلك أسرع أفراد العائلة المقدسة، فتركوا المطرية[2] واتجهوا نحو الجنوب، ونزلوا فى منطقة الزيتون[3]، حيث باركها عيسى، ولقوا من أهلها كل ترحيب ومحبة، وبقيت العائلة المقدسة تنعم بفضل الله عليها، ثم رحلوا منها إلى منطقة مصر القديمة.

فلما كانت ذات ليلة ..

هدأ يوسف للراحة، فغفت عيناه، فسمع هاتفا يناديه:

---

(١) لعل ذلك كان تأكيدا لما جاء فى سفر أشعياء النبى أحد أسفار العهد القديم (فترتجف أوثان مصر من جهة) الإصحاح ١٩ فقرة ٢٥.

(٢) تروى بعض الروايات أنه فى جهة ما من المطرية، لا يختمر فيها عجين، لأن أهلها رفضوا إعطاء الخبز لمريم عندما خرجت تطلبه منهم لطفلها.

(٣) فى المنطقة التى زارتها العائلة المقدسة توجد كنيسة العذراء مريم، وفى سنة ١٩٦٨ ظهرت العذراء فى قبة الكنيسة، وصاحب ظهورها خروج حمام أبيض ونجوم صغيرة منيرة، وكان يشم رائحة بخور طيبة.

- يا يوسف: إن هيرودس .. مزمع أن يرسل جنوده إلى مصر، ليطلبوا الصبى وأمه.

حتى إذا استيقظ يوسف، واستعاد كلمات الهاتف له .. أدرك أنه نفس الصوت الذى ناداه ذات يوم، وأمره أن يأخذ الطفل وأمه، ويهرب بهما إلى مصر؛ خوفا عليهما من هيرودس، ومعنى هذا أن هيرودس ما يزال يبحث عن الطفل، ليقضى عليه، وعاد إلى ذهن يوسف ما حدث فى تل بسطة حين تحطمت آلهة معبد الإلهة باستت، وما حدث فى أون حين تحطمت آلهة المدينة، وخشى على مريم وابنها من أن يعرفهما الناس، وتكون فرصة للقبض عليهما، لذلك اتجه يوسف إلى مريم، وقد علت وجهه مسحة من التردد، وهو يقول:

- يا مريم .. يا ابنة العم ..

وسكت يوسف قليلا، بين لهفة مريم، ثم عاد يقول:

- لقد كتب علينا الرحيل.

قالت مريم:

- وإلى أين يا يوسف؟!

ووجدت سالومة فيما يقوله يوسف فرصة تعبر فيها عما يجول فى خاطرها، فقالت:

- إلى أين يا يوسف؟! أنعود إلى الصحراء، ثانية؟!

قال يوسف:

- إنـها دعـوة مـن الـرب أن نرحـل بعيـدا .. بـهذا أمرنـى ملاكـه.

وراح يوسـف يحكـى لمريـم وسـالومة مـا كـان مـن أمـره مـع مـلاك الـرب، وقـد تـراءت أمامـهم ذكريـات وخواطـر كثـيرة ..

قـالت سـالومة:

- أمـا يكفـى هـيرودس مـا فعلـه بقومنـا .. أمـا يـزال شـيطانه يسـول لـه الشـر؟!

فقـالت مريـم فـى إيمـان بـالله:

- إنـها مشـيئة الله يـا سـالومة .. أن نرحـل .. فـخطواتنـا ليسـت طـوع أمرنـا .. نخطوهـا كمـا نـهوى، ولكننـا نمضـى بـها على هـدى مـن الـرب.

وقـال يوسـف:

- بعيـدا .. بعيـدا .. عـن أيـدى رجـال الـوالى الرومـانى وجنـود هـيرودس.

وقـالت مريـم:

- وليكـن لنـا فـى الغـد مكـان آخـر، ونسـعد بقـوم آخريـن.

(١٢)

فيمـا مضـى .. كـان أفـراد العائلـة المقدسـة يسـتريبون فـى ملاحقـة رجـال هـيرودس لهـم، كثـيرا مـا كـانت تـتراءى أمامـهم الخواطـر كضـوء سـرعان مـا يطردونـها عـن أذهانـهم .. أمـا وقـد أنبأ مـلاك الـرب يوسـف بمـا انتـواه هـيرودس، وأنـه أرسـل جنـوده إلى مصـر، فقـد كـان عليـهم أن يبتعـدوا بأنفسـهم عـن هـذه المنطقـة فاتجـهوا سـريعا نحـو الجنـوب إلى منطقـة مصـر القديمـة، ومـروا فـى طريقـهم على عـدة منـاطق مـا تـزال بـها آثـار مسيحية حتـى الآن، مثـل حـارة زويلـة ومنطقـة الغزنويـين.

وحينمـا وصلـوا إلى مصـر القديمـة .. لم يسـتطيعوا أن يقيمـوا تحـت ظـل شـجرة كمـا كـانوا يفعلـون مـن قبـل، بـل كـان عليـهم أن يختبئـوا عـن أعـين الرقبـاء، حتـى يـأمنوا التعـرف عليـهم، ولذلـك كـانت إقامتـهم فـى مغـارة أو كـهف[١]، وسـاعدهم علـى ذلـك وجـود تجمعـات يهوديـة[٢] فـى هـذه المنطقـة.

---

(١) من أهم المناطق التى اختبأت فيها العائلة المقدسة: حارة الخرنفش، والتى توجد بها الآن كنيسة قديمة تعتبر مياهها مقدسة، ويأتى إليها بطريرك الحبشة ليأخذ كمية من مياهها يوم ٢٠ يونية من كل عام، ومغارة أبو سرجة التى ما تزال موجودة حتى الآن، وقد أقيمت فوقها كنيسة أبو سرجة التى تعتبر من أهم المزارات السياحية.

(٢) مما يذكر أن اليهود كان لهم حى خاص بهم، ومعبد ما تزال بعض آثاره موجودة، ويقال أن الذى بناه هو النبى أرمياء (له سفر باسمه من أسفار العهد القديم).

لم تستطع العائلة المقدسة أن تستمر إقامتها طويلا فى مصر القديمة، فسرعان ما غادروها بعد أن باركوها .. مبتعدين نحو الجنوب .. حتى وصلوا إلى منطقة المعادى واختبئوا فى مغارة فيها، أقيمت عليها فيما بعد كنيسة[1] العذراء مريم.

من المعادى .. عبرت العائلة المقدسة النيل فى قارب شراعى إلى الضفة الغربية حيث زاروا مدينة منف[2] ثم استقلوا مع بعض المسافرين مركبا شراعيا .. متجهين نحو الجنوب فى رحلة طويلة.

ومضى المركب الشراعى بهم فى النيل .. يتهادى فوق صفحة المياه .. هم سعداء بما هيأه لهم الرب، وكانت سعادتهم أكثر بريان المركب الماهر الذى كان على دراية عالية بشئون الملاحة فى النيل، وقد امتلك ببراعة زمام دفة المركب .. يحركها بمهارة، ويوجهها بدقة، واستطاع بحكمته أن يتحكم فى شراع المركب .. ينشره أو يجمعه تبعا لاتجاه الرياح، فإذا أعجزه الأمر .. دفع ببعض مساعديه إلى الشاطئ

---

(١) فى يوم ٣ برمهات الموافق ١٢ مارس سنة ١٩٧٦ عثر على كتاب مقدس قديم يطفو فوق سطح الماء، كان مفتوحا على صفحة من سفر أشعياء (أحد سفار العهد القديم، الإصحاح ١٩ فقرة (٢٥) والتى جاء بها (مبارك شعبى مصر) وهذا الكتاب محفوظ الآن فى كنيسة العذراء مريم بالمعادى.

(٢) منف (ممفيس): كما يطلق عليها اليونانيون، كانت عاصمة مصر فى عصر الدولة القديمة بعد توحيد الوجهين على يد الملك مينا (نارمر)، واستمرت كذلك حوالى ٨٠٠ عام .. هى الآن ميت رهينة بمحافظة الجيزة.

ليشدوا المركب بحبال ربطوها على أكتافهم، وهم يغنون أغانيهم التى تبعد الكلل على أجسادهم، ومن حين لآخر يرددون عبارتهم المألوفة .. هيلا هيلا .. هيلا ليصا[١].

ولاشك أن أفراد العائلة المقدسة .. قد اشتركوا مع غيرهم من المسافرين فى أحاديث كثيرة .. عن النيل وخيراته على مصر، مما دفع المصريين إلى عبادته وتقديسه، ولعلهم ذات يوم شاهدوا احتفال المصريين بعيد وفاء النيل العظيم، وهم يلقون إليه بعروس زينوها .. تقربا إليه، كى يمنحهم فيضانا يملأ أرضهم بركة وخيرات، ولا بد أن بعضهم قد تحدث عن سيطرة الرومان على مصر، مما دفع بمريم ويوسف وسالومة أن يتذكروا ما يفعله الرومان فى فلطسين، وذلك الهيرودس الأدومى الذى كان سببا فى هروبهم من ديارهم، فى انتظار يوم العودة.

وهكذا مضى المركب فى النيل بمن فيه عدة أيام .. حتى رسا بهم فى منطقة الجرنوسى على بعد ١٠ كم من مغاغة[٢].

كان من الطبيعى على الأسرة المقدسة ألا يمضوا فى طريق واحد، حتى لا يصل إليهم جنود هيرودس، ولذلك كثيرا ما كانوا يغادرون طريق المدن الواقعة على النيل، ليتجهوا إلى الشرق حيث بعض الجبال، أو إلى الغرب حيث المنطقة أكثر سهولة، فما كادوا يصلون إلى مغاغة حتى اتجهوا نحو الغرب،

---

(١) هذه العبارة ترجع إلى عصر الفراعنة، وتعنى الدعوة إلى الخروج من الطين.

(٢) فى غرب مغاغة بنيت كنيسة العذراء مريم، حيث كان يوجد بئر قديم، يعتقد أنه كان يمد العائلة بحاجاتهم من المياه.

فـزاروا قريتـى صندفـة[1] وبهنسـة[2].

مـن بهنسـة فـى الغـرب اتجـهت العائلـة المقدسـة إلى بنـى مـزار علـى النيـل، وعـبروا إلى الضفـة الشـرقية، ومضـوا فـى طريقـهم نحـو الجنـوب، حتـى وصلـوا إلى قريـة بنـى خـالد ثـم إلى سمـالوط، فـنزلوا مـن المركـب، ثـم سـاروا حـوالى ٢ كـم، وكـان الطريـق قـد أجـهدهم وحـرارة الشـمس تلفـح وجوهـهم، فلجئـوا إلى جبل يعـرف بجبـل الطـير[3] ليسـتظلوا بظلالـه.

فبينمـا هـم كذلـك ..

.. انـهارت كتلـة ضخمـة مـن الجبـل، وزحفـت نحوهـم، حتـى لتكـاد تسـقط عليـهم، وارتـاعت مريـم، وكـان أخـوف مـا يخيفـها علـى ابنـها، وبـين لهفـة يوسـف، ودعـوات مريـم، وهـى تتعلـق بنظرهـا إلى السـماء .. أدهشـهم أن يـروا الطفـل عيسـى، وهـو يمـد يـده يتلقـف الصخـرة بكفـه[4] .. صدهـا، منعـها مـن السـقوط،

---

(١) صندقـة حاليـا: وكـانت تعـرف باسـم (أبـاى أيسـوس) أى قـدم المسـيح، وهـى تبعد عـن بهنسة بحـوالى ١٠ كـم.

(٢) بهنسة على بعـد ١٧ كـم مـن بنـى مـزار.

(٣) جبل الطير: سمى بـهذا الاسـم لأنـه كـان يضـم معـابد لعبـادة الطيـور المقدسـة، والتـى مـن أشـهرها طـائر أبـو قـير، وكـان بـالجبل شـق .. تـأتى إليـه كـل عـام جماعـات من هذه الطيور، كـل طـائر يضـع منقـاره فـى شـق الجبـل، ثـم يمضـى، حتـى يـأتى أحـد هـذه الطيـور، ويضـع منقـاره فـى الشـق، فيلتحـم الشـق عليـه، ويبقـى كذلـك معلقـا حتـى يمـوت.

(٤) من أجل ذلك سمـى بجبـل الكـف، وبنيـت فوقـه كنيسـة الكـف، ومـا زالـت آثـار كـف المسيح موجـودة علـى الصخـرة يمكـن رؤيتـها.

لتبقى فى مكانها، كأنما أمسكت عن الحركة، ليمضى الجميع مبتعدين عن خطر أوشك أن يحيق بهم، وقد أسعدتهم بركة الطفل، ولعل مريم فى تلك اللحظة .. قد تذكرت ذات يوم حين أنطق الله عيسى، وهو فى مهده .. (وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ).

قضت العائلة المقدسة فى هذا المكان ثلاثة أيام بعد أن باركه عيسى، وباركته مريم، واستقلوا مركباً شراعياً، ماضين فى طريقهم، فمروا على مدينة المنيا[1] ونزلة عبيد، وعبروا النيل عند المنطقة التى يشغلها الآن كوبرى المنيا الجديد، ثم مضوا فى طريقهم نحو الغرب .. حتى وصلوا إلى مدينة الأشمونين[2]، كى يبتعدوا عن طريق النيل، فما كادوا يصلون إلى هذا المكان، حتى حدث ما لم يخطر على بالهم!!

كان فى مدخل مدينة الأشمونين تمثال لحصان من النحاس يعبده الناس فى هذه المنطقة، فما كاد عيسى ينظر إلى هذا التمثال .. حتى تهاوى عن موضعه، ولعل هذه الصورة قد أعادت إلى ذهن مريم ويوسف ما حدث من قبل فى تل بسطة والمطرية، وخشيت العائلة مما قد يترتب على ذلك من متاعب قد تكون سبباً فى التعرف عليهم .. لذلك أسرعوا،

---

(١) المنيا: كان يطلق عليها منت خوفو (أى مرضعة خوفو)، أو منية خوفو، وكانت هذه المدينة عاصمة لإحدى مقاطعات الصعيد.

(٢) الأشمونين: كانت تعرف باسم (خمنو) أو (خمون شمون) أى مدينة الثمانية معبودات .. وكانت عاصمة الولاية ١٥ فى الوجه القبلى.

فغادروا مدينة الأشمونين، عائدين إلى مدينة ملوى[1]، حيث استقلوا المركب الشراعى، ومضوا فى الطريق نحو الجنوب حتى وصلوا إلى مدينة ديروط[2].

أقامت العائلة المقدسة فى ديروط عدة أيام، ثم غادروها إلى القوصية[3]، واتجهوا نحو الغرب، حتى وصلوا إلى مدينة مير[4] (ميرا)، ولكنهم لم يمكثوا فيها طويلا، فسرعان ما اتجهوا نحو الجنوب .. حيث وصلوا إلى جبل قسقام[5].

أحس أفراد العائلة المقدسة فى قسقام بأنهم ابتعدوا عن مواطن الخطر الذى كان يتهددهم، فقد كان هذا المكان بمنأى عن العمران، ومن أجل ذلك بنى يوسف فى هذه المنطقة بيتا من الطوب النيئ، وسقفه بجذوع النخل، وحفر إلى جواره بئرا كان يمد أفراد العائلة بما يحتاجونه من المياه، وقد سعد كثير

---

(١) ملوى: أصلها متلوى أى مستودع الأشياء، وهى الآن أحد مراكز محافظة المنيا.

(٢) ديروط: تعرف بديروط الشريف، وهى احدى مراكز محافظة أسيوط.

(٣) القوصية: هى الآن أحد مراكز محافظة أسيوط.

(٤) مير: ومعناها الأرض الخصبة، وهى قرية قديمة ترجع إلى عصر الفراعنة، ويقال إن جنود هيرودس قد وصلوا إلى هذه القرية، ولكنهم لم يعثروا على مكان العائلة المقدسة.

(٥) جبل قسقام: يتبع محافظة أسيوط، ويبعد عنها حوالى ٦٥ كم، وفى المكان الذى أقامت فيه العائلة دير المحرق، وله عيد عظيم يعرف بعيد الزيتونة .. وكلمة قسقام تعنى اللانهاية، أو إلى الأبد وفى جبل قسقام بنى الأمبراطور الرومانى زينون عدة كنائس، وفى إحداها كانت تتعبد ابنته القديسة ليلاريا .. ذلك بعد دخول المسيحية مصر.

ممن كانوا يرتادون هذه المنطقة، وكانوا يشربون من مياه البئر، ويتبركون بالطفل عيسى الذى شفى كثيرا من مرضاهم.

وهكذا بقيت العائلة المقدسة فى جبل قسقام حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

(١٣)

مضت الأيام، وتتابعت الشهور، ولم يعد الجنود الذين بعث بهم هيرودس إلى مصر، ليقبضوا على الطفل وأمه، ولم تبد فى الأفق بوادر تطمئنه على تحقيق الأمل الذى يراوده .. خيل إليه أن الهاتف الذى أنبأه بوجود الطفل فى مصر .. قد كذبه .. أضله .. خدعه .. أو أن رجاله قد لحقوا بالمجوس، ولن يعودوا إليه .. أدرك أنه كمن زلت قدمه فى بئر .. بعيد غورها فى مكان ناء .. فراح يتخبط ويضطرب .. يهب ويثب .. كلما حاول أن ينجو بنفسه .. عاوده السقوط، فلا هو بالغ رأس البئر، ولا هو بالغ قراره .. ودفعت به الظنون إلى أن يذهب فى تفكيره مذاهب شتى .. أسلمته لهواجس تعصف بعقله .. لم يعرف فى أيامه الضحى بقدر ما شعر فيها بالليالى المظلمة الحالكة .. أحزنه حاله، والخوف على مصيره .. أنساه الحزن كل ما حوله، ولم يعد يتذكر إلا كل ما يؤرق جفنيه. شعر كأن الأقدار تترصد له .. تعبث بعقله .. تدفعه إلى آمال كاذبة .. حتى إذا لعب الغمض بجفنيه ذات ليلة، سمع هاتفا يناديه:

- يا هيرودس، إن الطفل الذى تبحث عنه ما يزال حيا.

تحرك هيرودس فى فراشه، وفتح عينيه، يحاول أن يرى مصدر الصوت الذى يناديه .. لكنه لم ير شيئا، رغم ما يحيط به من شموع تملأ الحجرة نورا ..

وعـاوده الفكـر، وعـاوده الغمـض، ومـرة ثانيـة .. جـاءه صـوت الهـاتف:

- إن الطفل الـذى تبحـث عنـه مـا يـزال يعيـش مـع أمـه .. فـى مصـر.

- أعـرف ذلـك .. ولكـن أيـن؟!

- فـى جنـوب مصـر.. فـى جبـل قسـقام .. فـى صعيـد مصـر.. فى بيـت خـرب.

آفـاق هـيرودس، وهـو يـردد:

- جبـل قسـقام .. قسـقام.

كـانت كلمـات الهـاتف بدايـة جديـدة .. أعـادت إلى هـيرودس الأمـل الـذى افتقـده، فلـم تعـد مهمـة رجالـه صعبـة كمـا كـانت مـن قبـل .. لقـد حـدد الهـاتف مكـان الطفـل وأمـه ..

فلمـا كـان الصبـاح .. جمـع هـيرودس بعـض رجالـه ممـن يثـق بـهم، وأخـبرهم بمـا يـدور فـى ذهنـه، واختـار بعـض جنـوده، وبعـث بـهم إلى مصـر، وحـدد لهـم مكـان الطفـل فـى جبـل قسـقام فـى صعيـد مصـر.. وأمرهـم أن يسـرعوا بـالقبض عليـه، وحذرهـم مـن كـل مـا يفسـد مهمتـهم.

وبينمـا كـان الجنـود يسـتعدون للرحيـل .. كـان هـيرودس يفـرك يديـه فـى عصبيـة ظـاهرة .. يشـابك أصابعـه حينـا، ويفرقـها حينـا آخـر، وصـوت فـى داخلـه يـردد:

- جبـل قسـقام.

(١٤)

ألـف أفـراد العائلـة المقدسـة الحيـاة فـى جبـل قسـقام، ومضـت بـهم الأيـام أكـثر مـا يكونـون إحساسـا بـالأمن، فقـد ابتعـدوا عـن موطـن الخطـر الـذى كـان يتـهددهم، وإن بقيـت قلوبـهم متلهفـة بـالأمل أن يعـودوا إلى ديـارهم، كثـيرا مـا كـانت مريـم تدعـو ربـها أن يعيدهـا إلى أورشـليم، لتصلـى فـى بيـت الـرب، وتناديـه فـى هيكلـه المقـدس، وإلى ديارهـا فـى عـين كـارم، لتطمئـن علـى قومـها، وخاصـة أليصابـات وابنـها يحيـى، وإلى بيـت لحـم .. حيـث كـان مـهد ولدهـا عيسـى .. وإلى النـاصرة .. ذكريـات كثـيرة، وآمـال عريضـة كـانت تـتراءى أمـام عينيـها، فمـا تملـك إلا أن تلجـأ إلى مصلاهـا .. تنـادى ربـها أو تناجيـه .. يشـاركها كـل مـن يوسـف وسـالومة، وعيونـهم تتطلـع إلى عيسـى .. روح مـن الله وكلمـة منـه .. ألقاهـا إلى مريـم.

جلـس الجميـع ذات ليلـة .. يسـامرون الليـل ونجومـه، فلاحـظ يوسـف دمعـة تـترقرق فـى عـين مريـم، تمسكها مقلتـها، فقـال لهـا:

- أحنين إلى ديـارك وأهلـك يـا مريـم؟!

قـالت سـالومة .. وقـد أيقظـها السـؤال:

- مـا أحسـبها .. إلا مـا تقولـه يـا يوسـف، فكلنـا فـى شـوق إلى ديارنـا وأهلنـا، ونسـمات أورشـليم، وعطـر حـبرون.

قـال يوسـف:

- وهيرودس .. الـذى مـا يـزال يطلـب ابنـك يـا مريـم؟!

- هـذا مـا يدفعنـى إلى الصـبر يـا يوسـف .. لكنـى أحـس الليلـة .. كـأن ريحـا مـن ديارنـا تـهب علينـا.

- لعلـها الآمـال يـا مريـم .. فالآمـال لا تعـرف حـدودا للزمـان أو المكـان .. إنـها تمضـى بنـا إلى مسـتقبل، يرسمـه خيالنـا .. تصنعـه أفكارنـا.

وطـال بـهم الحديـث .. حتـى إذا أثقلـهم النعـاس .. نـاموا، وفـى خيـال كـل منـهم أمـل، وإن اشـتركوا فيـه جميعـا.

وأشـرق صبـاح اليـوم التـالى، فكـانت مريـم -كعادتـها- أسـبقهم إلى ضـوء النـهار، تبعتـها سـالومة، وراحتـا معـا تتابعـان قـرص الشـمس، وهـو يعلـو فـى الأفـق .. رويـدا .. رويـدا، وتنظـران الطريـق الممتـدة بـين الـوادى والجبـل .. حيـث يمضـى الرعـاة بقطعـان أغنامـهم، فبينمـا همـا كذلـك .. أبصرتـا قادمـا يتجـه نحوهمـا، وقـد بـدت شـيخوخة واضحـة فـى خطواتـه، ومـع ذلـك كـان يسـرع نحوهمـا، كأنمـا يسـابق أحـدا، أو يـهرب مـن شـىء يلاحقـه.

قـالت مريـم:

- وحـق الـرب .. إنـى لأتنسـم ريـح ديارنـا، وعطـر أحبائنـا .. بـهذا تحدثنـى نفسـى.

واقـترب القـادم منـهما، فمـا هـى إلا لحظـات، حتـى عرفتـاه،

فمـا اسـتطاعت سـالومة أن تمسك الكلمـات علـى شـفتيها، وهـى تـهتف فـى سـعادة:

إنـه .. يوسـا.

وأقبـل يوسـف علـى صـوت فرحتـهما، وسـعد بمـا يسـمع، وقبـل أن يصـل إليـهم القـادم .. كـانوا يرسمـون فـى خيـالهم آمـالا تتطلـع إليـها نفوسـهم، لاشـك أنـه قـدم إليـهم ليبشـرهم بنهايـة هـيرودس، أو لعـل الـرب قـد اسـتجاب لدعائـهم فعفـا عـن الطفـل الـذى كـان يطلبـه .. التفتـت مريـم إلى يوسـف، وقـالت لـه:

- هـو يوسـا .. تـرى مـا أمـره؟! ومـا الـذى دفـع بـه إلى المجـىء إلى هـذا المكـان البعيـد؟!

وقـالت سـالومة:

- إن وجهـه يبـدو عليـه مشـاق السـفر، فمـاذا عسـاه جـاء مـن أجلـه؟!

كـان يوسـا .. واحـدا مـن قـوم يوسـف[1] كـان واحـدا مـن رجـال الديـن الذيـن عرفـوا طريقـهم إلى الله، وعرفـوا بالحكمـة والموعظـة الحسـنة، وكـان قـد حضـر كثـيرا مـن الأحـداث التـى عاشـتها مريـم .. يـوم نذرتـها أمـها لله، ويـوم جـاءت بـها إلى بيـت الـرب، ويـوم اقـترعوا علـى مـن يكفلـها، فكـانت فـى كفالـة زكريـا، ويـوم خطبتـها ليوسـف النجـار، وحـين جـاءت إلى قومـها تحمـل وليدهـا، وكـان واحـدا ممـن آمنـوا بـبراءة مريـم وطهارتـها، ووقـف

---

(١) يقـال إن يوسـا كـان ابـن أخ ليوسـف.

بجانبها يدفع عنها اتهام قومها بالخطيئة، وكان سعيدا حين علم بهروب مريم وابنها بعيدا عن مذابح هيرودس، وإن كان لا يدرى أين كانت وجهتها.

هذه الحقائق هى كل ما تعرفه مريم ويوسف عن يوسا، لكن الذى أدهشهم .. كيف ولماذا جاء الرجل إليهم؟! فما كاد يوسا يجلس .. حتى أسرع يقول:

- اهربوا من هذا المكان.

- ....؟!

- احذروا رجال هيرودس .. إن جنوده قادمون إليكم.

ودهش الجميع لما يقوله يوسا .. أمن أجل هذا جاء الرجل ليبلغهم هذه الرسالة، وما يملكون إلا أن يسألوه:

-كيف عرفت ذلك؟

- إن شيطان هيرودس حدد له مكانكم.

وراح يوسا رغم ما يشعر به من التعب يحكى لهم، كيف أن أحد جنود هيرودس أخبره بالحقيقة، ومن أجل هذا كان عليه، أن يسابق الأيام، وأن يسرع بخطواته إلى مصر.. إلى جبل قسقام، حتى إذا بلغه .. ظهر له الشيطان ليضلله الطريق .. لكن يوسا لم يستمع لكلمات الشيطان، ومضى مسرعا .. حتى وصل إليهم.

قال يوسف:

- إنها مشيئة الرب يا يوسا .. إنما نمضى خطواتنا على

هدى منه، وهو أكبر من هيرودس ورجاله.

ولأن يوسا كان قد أجهده طول الطريق، وبلغ به التعب مبلغه، فقد كان عليه أن ينام، فانتحى ناحية من الجبل، وتوسَّد حجرا، وراح فى نوم عميق .. بينما اتجهت مريم ويوسف وسالومة إلى الصلاة لربهم والدعاء له، حتى إذا انتهوا من صلاتهم .. كان يوسا ما يزال يغط فى نوم عميق، يوحى بمقدار ما كابده من مشاق.

وانتهى النهار أو كاد، وما يزال يوسا نائما .. حتى إذا حاولوا أن يوقظوه .. أدركوا الحقيقة ..

.. لقد مات يوسا.

(١٥)

خيم السكون على قصر هيرودس، وهو الذى كان يعج بروادة، وتتلألأ أنواره من قبل .. أقفرت حجراته، وخبت أنواره .. حتى ذبالات شموعه .. لم تجد من النسيم ما يمنحها الحياة، فانطفأت ليلف القصر ظلام .. سواء ليله أم نهاره .. حتى أزهار الحديقة وورودها .. تساقطت .. لم تجد من يأسف عليها، وبقى هيرودس .. صاحب القصر والحديقة .. وحيدا .. لم يجد من يؤنس وحدته .. حتى كؤوس الشراب .. نسيها، فلم يجد فيها نشوته التى اعتادها! ولم يعد له مؤنسا .. إلا ذكريات الأيام الخوالى التى أدبرت إدبار الأمس فلن تعود، وبعض أذيال من الآمال التى يتعلق بها.

أما أستير .. فقد ابتعدت عنه، فلما ناداها ذات يوم، أقبلت إليه، وقد تخدد وجهها على غير موعده، وبدا عليه شحوب ذهب بنضارته، فبدت، وقد انطفأ شبابها .. تتكلف ابتسامة خابية .. تحاول أن ترسمها على شفتيها، فما استطاعت .. فضحتها دمعتان كبيرتان تألقتا فى عينيها .. أتراها كانت حزينة من أجل سيدها؟ أم على نفسها .. على آمالها التى ضاعت داخلها، وئدت فى مهدها!!

كان هيرودس .. قد بعث بجنوده إلى جبل قسقام فى صعيد مصر، ليعيدوا إليه الطفل وأمه .. بهذا أخبره شيطانه، وبقى هو .. معلقا قلبه بالأمل .. فما مضى غير قليل، حتى جاءه

من أنبأه أن الجنود الذين بعث بهم إلى مصر، قد هلكوا فى الطريق، وأنهم لن يصلوا إلى الصيد الذى نصب له شراكه .. عند ذلك شعر هيرودس أن الأقدار تعانده .. أحس كمن ينظم عقدا ثم يفرطه غيره .. ربما فكر أن يبعث جنودا آخرين، لكنه أدرك أنه أعجز من أن يحقق أمله، وأن السماء تقتص منه.

استيقظ هيرودس ذات صباح، وحاول أن يقف، فلم يستطع .. أعجزته قدماه .. وحاول أن ينهض، فما استطاع .. ثقل جسده، فلزم فراشه .. توخزه آلام تتزايد وتتضاعف .. لا يستيطع منها برءا .. وأحس بعلة فى جسده تمنعه من الحركة .. تزعجه فى مرقده، وكلما هم بالنهوض .. دفعه جسده إلى السقوط، فراح يتصفح وجوه من حوله، فما وجد ابتسامة من أحدهم تضىء نفسه، ولا كلمة تخفف عنه بعض ما يعانيه، فأغلق عينيه ليستعيد صورا لأحداث مضت، حتى إذا فتحهما خيل إليه أن بصره قد كف، وأن الظلمة تستر كل ما أمامه، لتبقى نظراته .. شاردة .. يعلو أنينه، وتتصاعد زفراته، ليرن صداها فى أرجاء الحجرة، وطالت الأيام بهيرودس وهو فى فراش المرض لا يبرحه .. تتضاعف آلامه يوما بعد يوم .. ويكبر المرض فى جسده، حتى تقيحت جراحه، ونخرت عظامه، وما عاد يجديه صراخ، وهو يشعر كأنه ينام فوق صخور كالحراب، تحتضنه رمال تشتعل بالهجير .. لا يملك لنفسه نفعا، ولا لغيره ضرا.

من أجل هذا .. ابتعد عنه أصدقاؤه ومنادموه .. وهجره جلساؤه ورفاقه .. حتى خدم قصره .. ضاعت أوامره بينهم

دون أن يجيبه أحد إلى ما يطلب، وأصبحوا فى شك مما يقوله أو يفعله، وما عادوا يستجيبون لصراخه أو صيحاته .. حتى خيل إليه أنهم سعداء بما أصابه!!

وأحس هيرودس باقتراب نهايته، وأن الموت مدركه، فقد طالت به أيام المرض دون أن يبل منه، أو تخف آلامه، فنادى شيطانه .. عله يعيد إليه عافيته، فكان شيطانه أسرع إليه من نفسه .. لبى نداءه، ولكنه بدلا من أن يشفيه .. سول له فكرة أسعدته .. فما مضى الشيطان عنه .. حتى أمر هيرودس رجاله، فجمعوا له الآلاف من شباب شعبه .. من أبناء الذين كانوا يعارضون سياسته، والذين أسعدهم مرضه، وينتظرون يوم تنتهى حياته. جمع هؤلاء جميعا، وقيدهم فى سلاسل .. وأودعهم سجن ماكيرا .. بين دهشة الناس .. وأمر رجاله، أن يذبحوا هؤلاء الشباب يوم إعلان وفاته! .. لم يكفه ما اقترفه من مذابح أيام حياته. ذبح زوجته وولديها وصديقيه، ثم مذبحة الأطفال الأبرياء فى بيت لحم وماحولها، فشاء أن تستمر مذابحه حتى بعد موته .. كأنما يغسل الدم بالدم!! ووجم الناس من هول ما رأوا وما سمعوا، والشباب يساقون فرادى وجماعات إلى قلعة ماكبرا .. القلعة السوداء فى انتظار مصيرهم الذى شاءه لهم حاكمهم.

وأصبح الناس ذات يوم .. فإذا خدم فى القصر .. يصرخون فى سعادة.

– لقد مات هيرودس.

(١٦)

كانت وفاة يوسا أمرا محزنا لأفراد العائلة المقدسة، فجمدت فى عيونهم الدموع من شدة ما أصابهم .. إلا من دمعة ترقرقت فى عين مريم .. لقد تمنوا لو يقى يوسا معهم .. يشاركهم حياتهم فى جبل قسقام، ويصاحبهم فيما بقى لهم من رحلة فى مصر، ويستعيد معهم أخبار قومهم .. لكن الأقدار شاءت له غير ما أرادوا .. حَسْبهم منه أنه كان ريحا طيبة .. هبت عليهم من ديارهم .. ثم مضت كلمح البصر، وما يملكون إلا أن يسرعوا بجسد يوسا إلى مثواه الأخير فى أحد الكهوف بالجبل، وأن يقيموا فوق قبره شاهدا .. يحكى للخلف من بعده قصة هذا الشيخ الذى جاء من فلسطين لتطوى صفحات حياته فى هذا المكان .. غريبا عن وطنه، فما انتهوا مما فعلوا .. حتى قال يوسف لمن معه:

- فاذكروا نصيحة الرجل لكم .. أن نبتعد عن هذا المكان لعل الرب شاء أن يبقى على حياته أياما، وأن يهيئ له من سبل الأمان فى طريقه ما استطاع بها أن يصل إلينا .. حتى يبلغنا هذه النصيحة.

ثم التفت إلى مريم .. وقال:

- إن رجال هيرودس ما يزالون يتعقبون ولدك .. ولخير لنا أن نبتعد.

قالت سالومة:

- وإلى أين يا يوسف؟!

- إلى أبعد من ذلك يا سالومة .. نحو المزيد من الجنوب. إننا في مصر، وسنبقى فيها .. حتى يأمرنا الرب بالعودة إلى ديارنا.

كان على العائلة المقدسة أن تستعد للرحيل في انتظار ما تحققه لهم الأيام.

حتى كانت ذات ليلة ..

هدأ يوسف للراحة .. يطلب النوم، بعد أن انتهى من صلاته ودعائه، فسمع هاتفا يناديه:

- (يا يوسف .. قم وخذ الصبي وأمه واذهب بهما إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كان يطلبون نفس الصبي[1]).

استيقظ يوسف من نومه، فأدرك أنه نفس الصوت الذي ألفه من قبل، والذي كان قد أنبأه بالذهاب إلى مصر، وحذره من رجال هيرودس، إنه في هذه المرة .. يطلب منه العودة إلى فلسطين، فأسرع إلى مريم وسالومة .. يخبرهما بأمر الرب له، وقد ملأت السعادة وجهه، وينطق بها لسانه.

كانت لحظات سعيدة حقا .. عاشتها العائلة المقدسة،

(١) إنجيل متى الإصحاح الثاني (٢٠).

وهـم يسـتمعون إلى كلمـات يوسـف .. يـهنئ بعضـهم بعضـا، ويتطلعـون بقلوبـهم وخيـالهم إلى يـوم يصلـون إلى فلسـطين، ومـا يملكـون إلا أن يتجـهوا إلى ربـهم .. يصلـون لـه .. يشكرونه.

مـا هـى إلا بضعـة أيـام .. ودع فيـها أفـراد العائلـة المقدسـة مكـان إقامتـهم وقـبر يوسـا فـى جبـل قسـقام، واتجـهوا نحـو الجنـوب .. فوصلـوا إلى جبـل درنكـة[1]، فمـا لبثـوا غـير قليـل .. حتـى اتجـهوا إلى أسـيوط.

مـن أسـيوط استقلوا قاربـا شـراعيا .. مضى بـهم فـى النيـل .. متجـهين نحـو الشـمال .. مـارين بنفـس الطريـق الـذى جـاءوا منـه .. لقـد كـانوا مـن قبـل خـائفين .. هـاربين .. لكنـهم اليـوم .. فرحـون .. مستبشـرون .. كثـيرا مـا اسـتعادوا أحداثـا وصـورا عاشـوها فـى تلك المدن والقـرى التـى مـروا بـها.

وإذا كـانت الفرحـة قـد غمـرت نفوسـهم لعودتـهم إلى ديـارهم، فلـم يكـن ذلـك لينسـيهم تلـك الأيـام السـعيدة التـى قضوهـا فـى مصـر بـين أحضـان المصريـين وحبـهم، فقـد كـان عزيـزا عليـهم أن يغـادروا تلـك الأرض الطيبـة .. كـانت قلوبـهم تخفـق بخفقتـين مختلفتـين .. أمـا إحداهمـا: فخفقـة الفـرح لعودتـهم إلى ديـارهم، وأمـا الأخـرى، فإحساسـهم بـالفراق لمصـر .. أرضـها وشـعبها، ومـا يملكـون، وهـم يشـعرون بـالخفقتين إلا أن

---

(١) جبل درنكة على بعد ٨ كم من أسيوط، به دير للعذراء مريم فى المكان الذى أقامت فيه العائلة المقدسة، وكنيستان إحداهما منقورة فى الجبل، والأخرى على سفحه باسم العذراء مريم.

يشكروا الله أن هيأ لهم طريق الخير والسلامة.

هكذا عاش أفراد العائلة المقدسة مع ذكرياتهم وأحلامهم وآمالهم .. حتى وصلوا إلى مصر القديمة، ومنها اتجهوا إلى المحمة[1] حيث أنبع الله على يد الطفل عيسى بئر ماء استحم به، وقضوا فيها وقتا طيبا، ثم استأنفوا السير نحو الشرق، فوصولا إلى بلبيس ثم الفرما والعريش حتى حدود مصر.

من حدود مصر .. دخلوا فلسطين، حتى وصلوا إلى بيت لحم[2] .. وساءهم تلك الأحداث التى وقعت لأهلهم، وما حدث لنبى الله زكريا، ووفاة أليصابات، وابتعاد يحيى إلى البادية، كما علموا بأنه أرخيلاوس خلف أباه هيرودس الكبير.

وأدرك أفراد العائلة المقدسة مقدار ما قد يحيط بهم من أخطار هيرودس الابن، مما قد يدفعه إلى أن يستمر فى نفس السياسة التى كان أبوه يتبعها فى ربع الخليل، فآثروا أن يبتعدوا عن الخطر، فمضى يوسف ومريم وعيسى إلى الشمال .. حتى وصلوا إلى الناصرة[3]، وعاد يوسف إلى حانوته على

---

(١) راجع هامش الفصل السابع من هذا الكتاب.

(٢) بيت لحم فى أرض الخليل .. تقع جنوب القدس (أورشليم) بحوالى ٦ كم .. بها كنيسة المهد الذى أنشأها الأمبراطور الرومانى قسطنطين فوق المكان الذى ولد فيه المسيح عيسى.

(٣) الناصرة: تقع فى أرض الجليل فوق قمة جبل عال بجوارها بئر ماء يعرف ببئر العذراء مريم، وفى غربها يقع جبل الكرمل، وفى شرقها جبل طابور، وفى شمالها جبل حرمون (الشيخ).

ناصية أحد الشوارع بالناصرة ليزاول عمله كنجار، يشاركه عيسى العمل، وينعمان سويا بما تهيئه لهما مريم من سعادة .. ولتمضى بهم جميعا قافلة الحياة كما شاءها الرب لهم، ولتكون صورة رحلتهم إلى مصر باقية فى أذهانهم على مدى السنين.

وبعد ..

فهذه هى خطوات العائلة المقدسة منذ خروجهم من فلسطين إلى مصر.. وعودتهم .. يطيب لى أن أسجلها على صفحات هذا الكتاب .. من وجهة نظر مواطن مصرى .. يشعر بسعادة بالغة أن الله تعالىٰ قد اختص وطنه مصر[1] .. بهذه المكرمة والبركة .. أن تكون ملاذا وملجأ لنبى الله عيسى وأمه .. هربا من بطش عدو يترصد لهما، ليجدا فيها الأمان والمحبة.

وإذا كان بعض الرواة والذين كتبوا عن هذه الرحلة .. قد اختلفوا حول بعض النواحى:

فمثلا قال بعضهم: إن عيسىٰ حين جاء إلى مصر.. كان عمره ستُ سنوات، وقال آخرون، كان ما يزال رضيعا .. لم يتعد بضعة شهور، وبين هؤلاء وهؤلاء .. قال فريق ثالث: كان عمره يقترب من العام الثالث.

وعن المدة التى قضتها العائلة المقدسة فى مصر: قال قائلون: كانت ست سنوات، وقال آخرون، أنها ثلاث سنوات، تزيد أو تنقص قليلا.

المعروف أن أفراد العائلة المقدسة: هم العذراء مريم وابنها عيسى، وخطيبها يوسف النجار.. بينما أضاف البعض إليهم

---

(١) وردت كلمة مصر فى الكتاب المقدس ٦٠٠ مرة، وفى القرآن الكريم خمس مرات.

فـى رحلتـهم .. سـالومة .. القابلـة التـى حضـرت ليلـة مـيلاد عيسى خـارج مدينـة بيت لحـم، فـرأت مـن البركـات والمعجـزات، مـا جعلـها تنـذر نفسـها لخدمـة مريـم، وتصاحبـها فـى رحلتـها إلى مصـر.

وسـواء أكـان هـذا الـرأى أم ذاك .. أم غيرهمـا، فـإن كـل الآراء أجمعـت على أن الأسـرة المقدسـة قـد زارت مصـر.. هـذه حقيقـة.

أمـا كيـف كـان يعيـش أفـراد العائلـة المقدسـة؟ بمعنـى آخـر.. كيـف كـانوا يحصلـون علـى مـا يحتـاجون إليـه مـن طعـام وشـراب يقيـم حياتـهم؟ .. فـالرب كـان كفيـلاً بـهم، ومـا كـان ليتركـهم للجـوع أو الظمـأ أو التسـول، وهـو الـذى كـان يـرزق مريـم فـى المحـراب .. قائمـة .. عـابدة .. قانتـة (... كُلَّمَـا دَخَـلَ عَلَيْـهَا زَكَرِيَّـا الْمِحْرَابَ وَجَـدَ عِندَهَـا رِزْقًـا قَـالَ يَـا مَرْيَـمُ أَنَّـى لَـكِ هَـذَا قَـالَتْ هُـوَ مِنْ عِنـدِ اللّهِ إنَّ اللّه يَـرْزُقُ مَـن يَشَـاءُ بِغَـيْرِ حِسَـابٍ)(١)

ولعلنـا مـن خـلال أحـداث الرحلـة .. قـد عشـنا مـع بعـض المصريـين الذيـن أكرمـوا الأسـرة المقدسـة ورحبـوا بـهم، كمـا حـدث فـى تـل بسـطة وسمنـود وعـين شمـس، وكـانت بركـة عيسـى ومريـم طريقـاً إلى المحبـة لكـل مـن التقـوا بـهم، وإذا كـان الله قـد حمـاهم مـن أخطـار الطريـق ولصوصـه، فـهو أرحـم بـهم مـن أن يتركـهم للجـوع.

أمـا مـا ذكـره بعـض الـرواة مـن أن مريـم ذهبـت ذات يـوم تطلـب خـبزاً لابنـها (كـان ذلـك فـى منطقـة المطريـة) فلـم يجبـها

---

(١) سـورة آل عمـران الآيـة (٣٧).

أحد إلى طلبها، وأن عيسى ابنها دعا على هذه المنطقة، وأن العجين لا يختمر في هذا المكان حتى الآن .. فأنا أنزه مريم عن أن تستجدى طعاما لابنها .. كما أنزه عيسى -كلمة من الله وروح منه- أن يدعو على أحد بما يسيئه، وهو الذى خلقه الله ليكون رسول سلام ومحبة .. وإذا كان البعض يرى فى هذه الحكاية معجزة لعيسى، فإن عيسى عليه السلام أكبر من أن تكون معجزته دعاء بشر لأحد .. كفاه من المعجزات الكثيرة التى أجراها الله على يديه طوال حياته، والتى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والأناجيل.

بعض الرواة -وأنا أميل إلى هذا الرأى- ذكروا أن مريم كانت تجمع سنابل القمح خلف الحصادين، وأنه كان لها جرابان .. تضع فى أحدهما ابنها الطفل عيسى، وتضع فى الجراب الآخر ما تجمعه من سنابل القمح، ليقيموا عليه حياتهم .. كما أنها كان تغزل الصوف والكتان لتصنع خيوطا .. لعلها كان تبيعها أو تنسجها ملابس لعيسى ويوسف .. ولعل يوسف هو الآخر .. كان يزاول حرفته كنجار متى سمحت له الفرصة بذلك[1]، وقبل كل هذا وبعده .. فلم يكن للمصريين أن يدفعوا بمريم إلى أن تستجدى، وهم الذين عرفوا بالكرم والمروءة.

حقيقة هامة .. يجب أن نؤكدها هنا، وهى أن رحلة

---

(١) ذكر بعض الرواة أن يوسف النجار زاول عمله كنجار حين كانت العائلة المقدسة تعيش فى منطقة أون (عين شمس).

العائلة المقدسة إلى مصر.. لم تكن للاستمتاع أو للسياحة والترفيه أو التجارة .. لكنها كانت رحلة شاقة .. عانى فيها أفرادها .. مشقة الطريق ووحشته ووعورته فى بعض المناطق، وتحملوا قسوة البرد حين كان الشتاء، ولظى الهجيرة حين كان الصيف .. كفاهم أنهم تركوا ديارهم وأهلهم، وفروا خائفين ممن يتعقبهم من رجال هيرودس الذى كان يترصد لهم .. صحيح أنهم أنسوا إلى المصريين وبادلوهم حبا بحب .. لكن ذلك لم يكن لينسيهم حنينهم إلى وطنهم وقومهم .. هذه طبيعة النفس البشرية التى جبلت عليها .. بدا ذلك واضحا من خلال لهفتهم ليوم العودة إلى فلسطين.

ويكفى مصر فخرا أنها تزخر بالأماكن التى زارتها العائلة المقدسة خلال رحلتها الطويلة التى قدرها البعض بأكثر من ألفى كيلومتر.. ما بين شمال مصر وجنوبها وشرقها وغربها .. هذه الأماكن التى ما تزال أو بعض معالمها باقية حتى الآن .. تحكى للأجيال المتعاقبة رحلة العائلة المقدسة .. هذا بالإضافة إلى الأماكن الأثرية من الأديرة والكنائس التى ترجع إلى بداية عصر دخول المسيحية مصر، وما لاقاه المسيحيون الأوائل من اضطهاد، وتعذيبهم على يد الرومان .. مما دفع بهم إلى الهروب إلى الصحراء حيث أقاموا فى أديرة بعيدة نائية .. ما تزال بعضها موجودة حتى الآن.

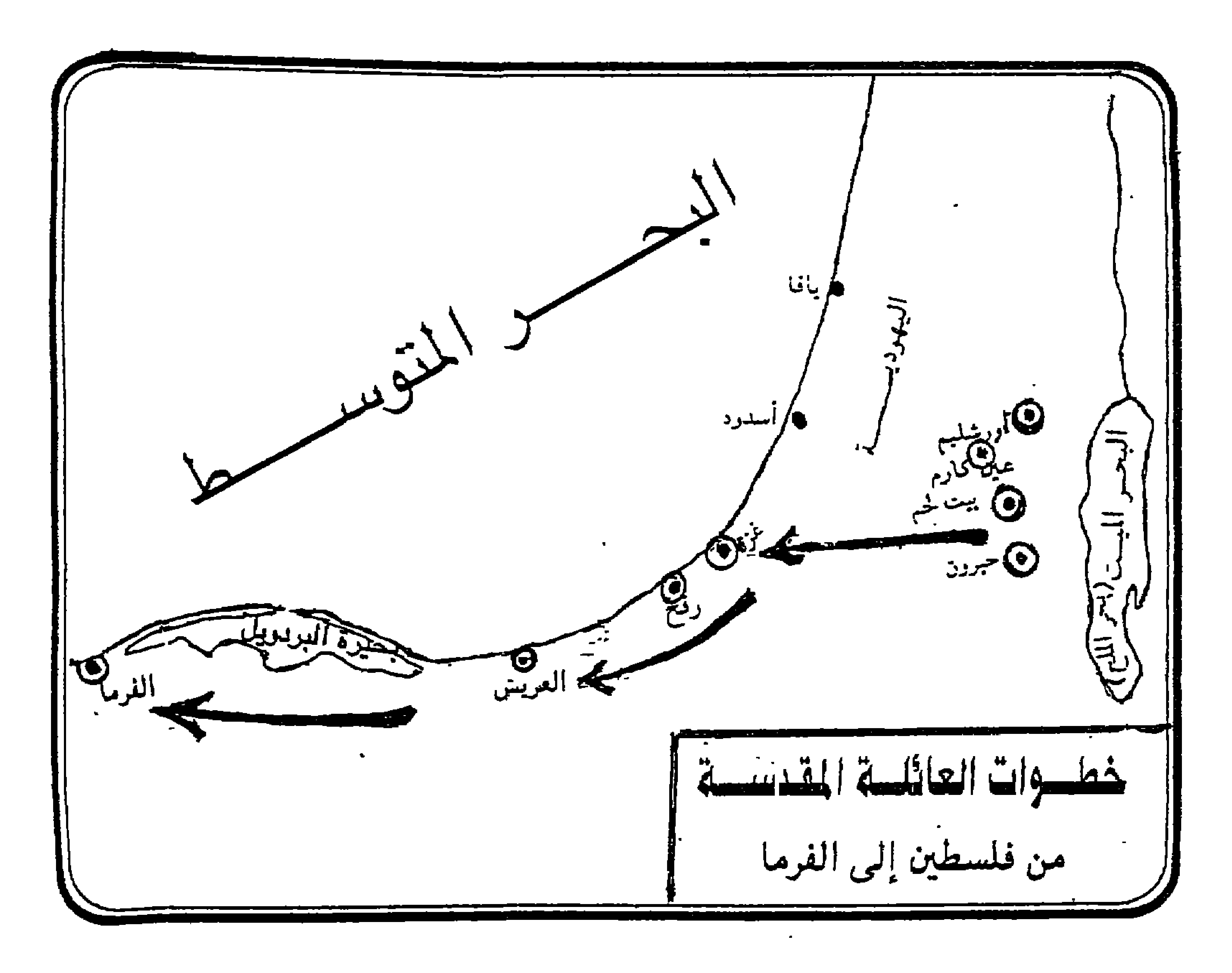
لقد مضى ما يقرب من ألفى عام على هذه الرحلة المباركة دون أن تحظى هذه الأماكن بما تستحقه من اهتمام .. إنها ما تزال كحبات اللؤلؤ بقيت دفينة بين أصدافها .. تنتظر أن

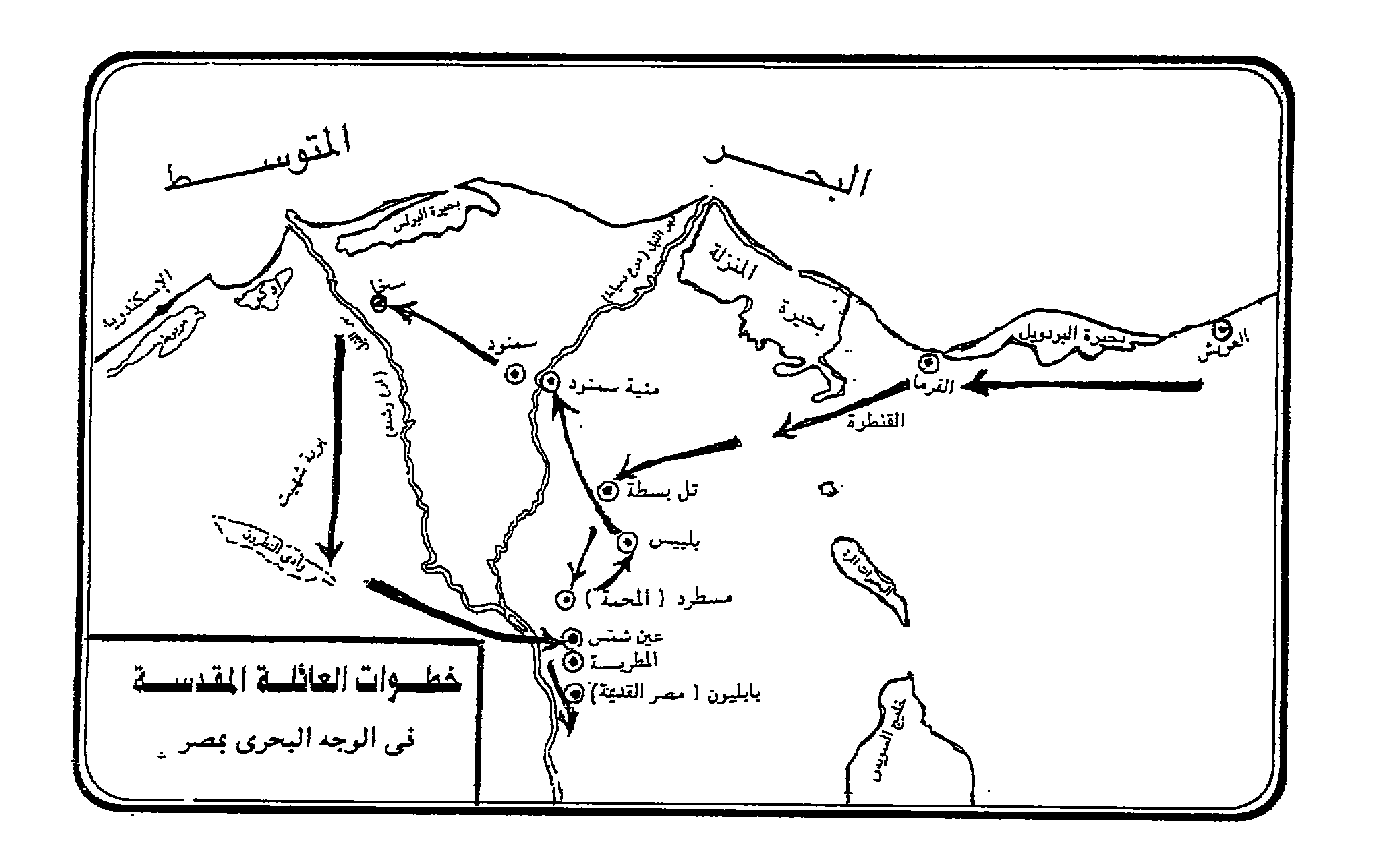
تمتد إليها يد غطاس ماهر ليصطادها، ويخرج ما فيها من لآلئ .. لينظمها عقدا فى جيد الحسناء مصر.

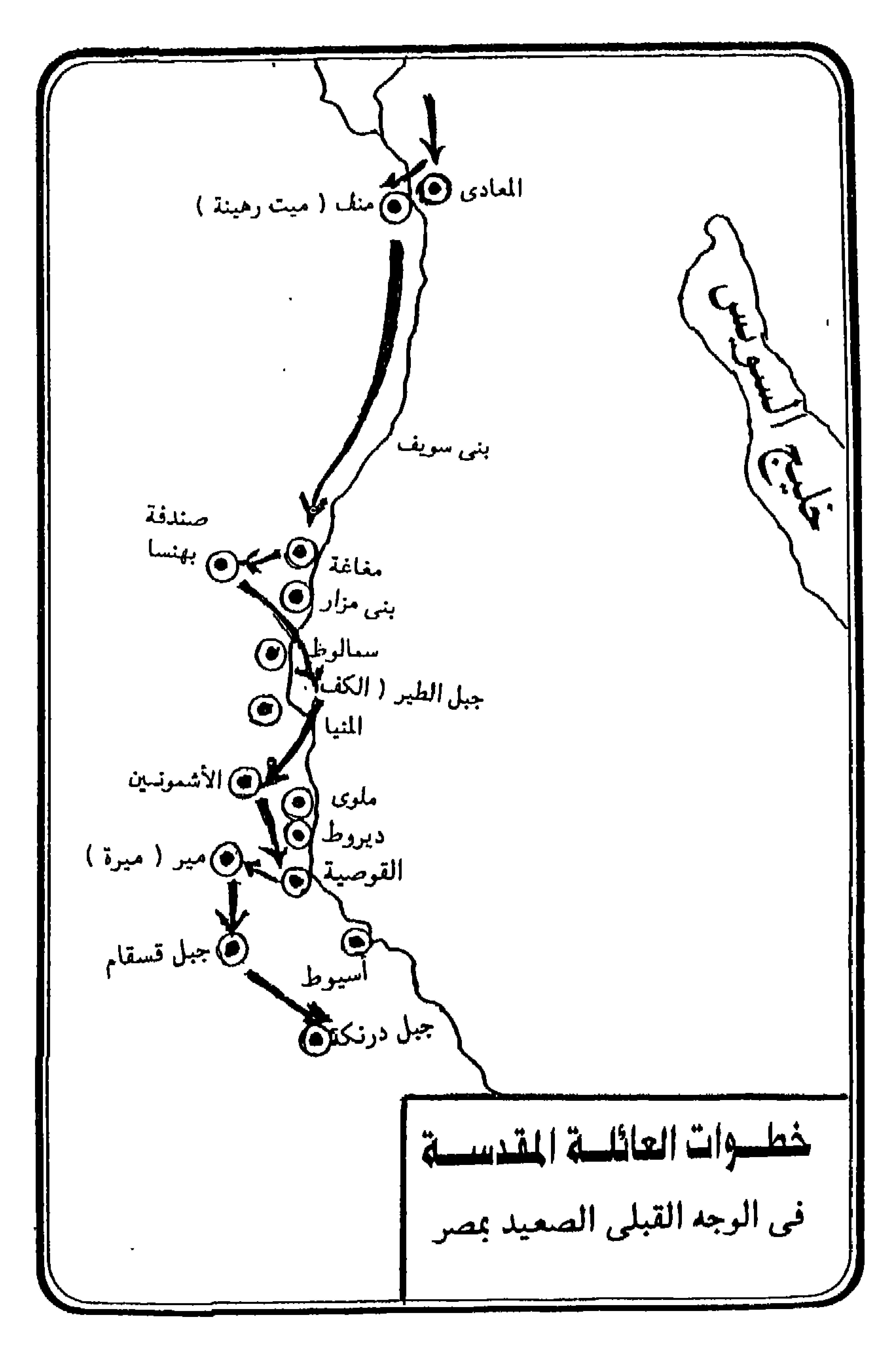
ترى .. متى تصل أيدى الإصلاح والعمران والاهتمام بهذه الأماكن، لتتصل بغيرها من الأماكن الإسلامية والآثار الفرعونية، لتكون منظومة متكاملة، تجذب السياح إلى مصر من الداخل والخارج، ولتكون مورد رزق، ومصدر رخاء وسعادة للمصريين جميعا؟!

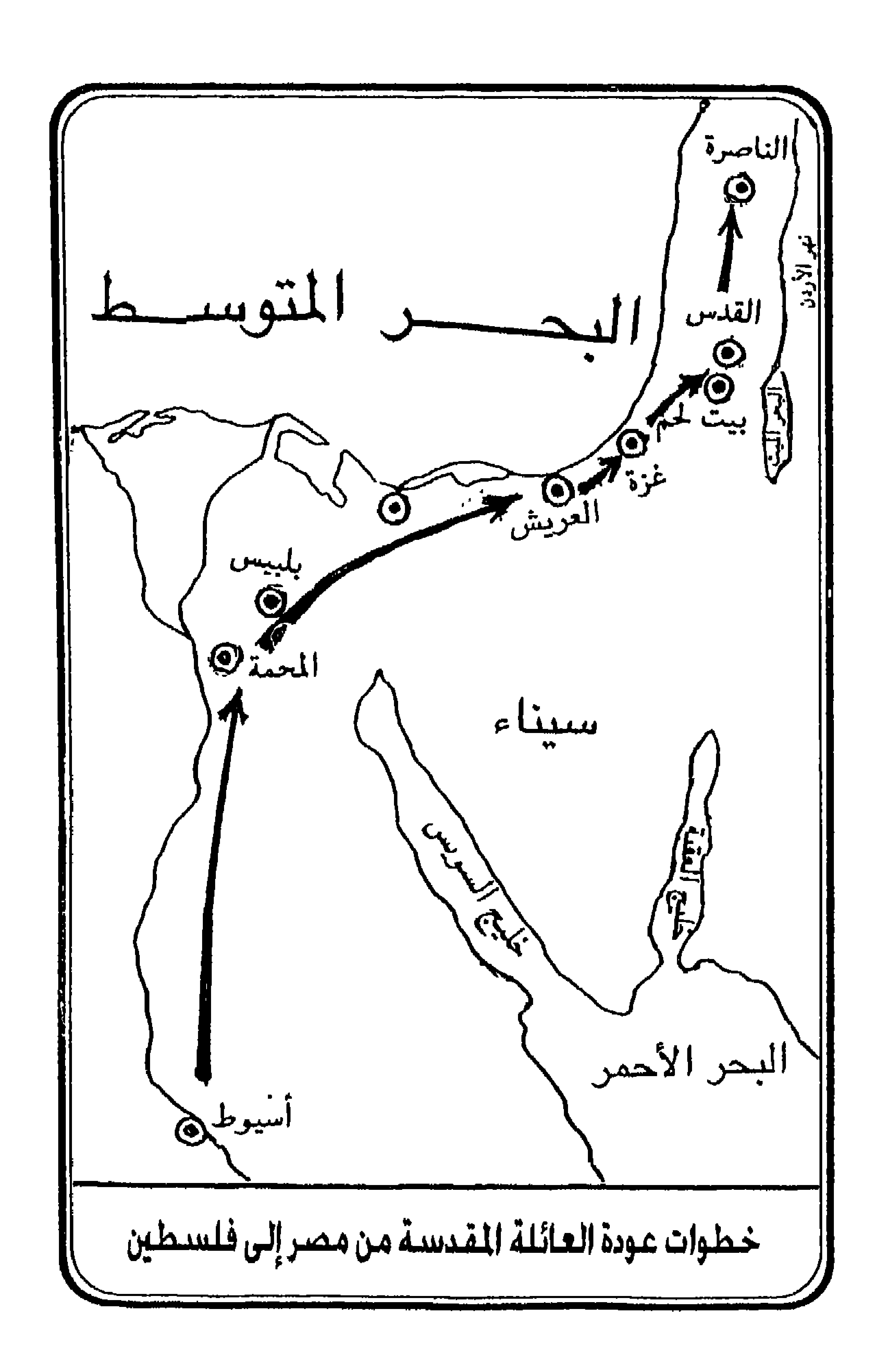
إنها الآمال نتطلع إليها ..

الخرائط


خطوات العائلة المقدسة
من فلسطين إلى الفرما
البحر المتوسط
البحر الميت (بحر الملح)
اليهودية
يافا
أسدود
أورشليم
عين كارم
بيت لحم
حبرون
غزة
رفح
العريش
بحيرة البردويل
الفرما


البحر المتوسط
العريش
بحيرة البردويل
الفرما
القنطرة
بحيرة المنزلة
بحيرة البرلس
الإسكندرية
سخا
سمنود
منية سمنود
تل بسطة
بلبيس
مسطرد (المحمة)
عين شمس
المطرية
بابليون (مصر القديمة)
برية شيهيت
وادي النطرون
خليج السويس
خطوات العائلة المقدسة
فى الوجه البحرى بمصر


المعادى
منف (ميت رهينة)
خليج السويس
بنى سويف
صندفة
بهنسا
مغاغة
بنى مزار
سمالوط
جبل الطير (الكف)
المنيا
الأشمونين
ملوى
ديروط
القوصية
مير (ميرة)
جبل قسقام
أسيوط
جبل درنكة
خطـوات العائلـة المقدسـة
فى الوجه القبلى الصعيد بمصر



خطوات عودة العائلة المقدسة من مصر إلى فلسطين

مراجع الكتاب

الكتاب	المؤلف
١- القرآن الكريم	
٢- الكتاب المقدس	
٣- العائلة المقدسة فى مصر	وزارة السياحة
٤- موسوعة تاريخ مصر	أحمد حسين
٥- الخطط المقريزية	تقى الدين المقريزى
٦- بلبيس بلد الأنبياء والرسل	السيد محمد عاشور
٧- آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية	كمال محرم
٨- الديانة المصرية القديمة	تأليف أودلف، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى.
٩- مرايم العذراء مريم	آباء الكنيسة الأرثوذكسية

١٠- أعداد من مجلات المصور، نصف الدنيا، صباح الخير، والدارة السعودية وبعض المقالات التى كتبت فى الصحف اليومية.

كتب للمؤلف

(١) المزاعم الصهيونية فى فلسطين — دار المعارف – سلسلة اقرأ ١٩٦٥

(٢) سجين المنصورة طبعة أولى — الدار القومية للطباعة ١٩٦٥

طبعة ثانية — دار سنابل ١٩٩٤

(٣) العذراء مريم وميلاد المسيح بين القرآن والإنجيل

دار نهضة مصر – القاهرة ١٩٩٣

(٤) مولد محمد صلى الله عليه وسلم — دار سنابل ١٩٩٥

(٥) الكعبة والمسجد الحرام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى الآن

دار سنابل ١٩٩٧

(٦) المشروعات الجديدة للتنمية فى مصر — ١٩٩٧

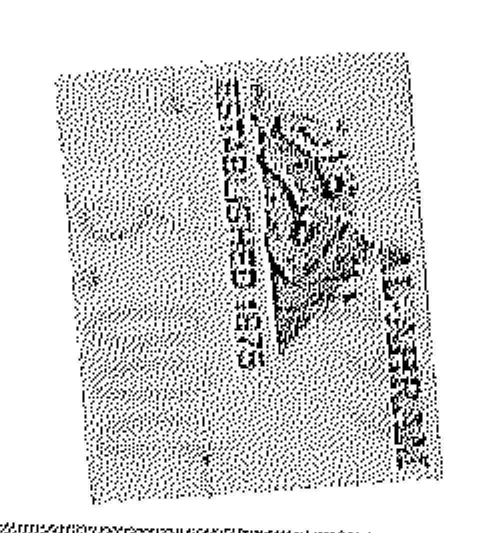
(٧) النبى الشهيد يحيى عليه السلام — توزيع الأهرام – ١٩٩٨

(٨) الطريق إلى النجاح — توزيع الأهرام – ١٩٩٩

(٩) خطوات العائلة المقدسة فى مصر — ١٩٩٩

رقم الإيداع ٩٩/١٣٠٩١
الترقيم الدولى .I.S.B.N 977 - 19 - 9703 - 3

مطبعة الرائد بالمنصورة
ت: ٣١٨٩٠٣ - ٣١١٥٦٧



هـــذا الكتـــاب

* يمضى مع أفراد العائلة المقدسة فى خطواتهم منذ خروجهم من فلسطين ، والأماكن التى زاروها فى مصر، حتى عودتهم إلى ديارهم.

* يتحدث الكتاب عن المعجزات التى أجراها الله على يد المسيح عيسى عليه السلام فى كثير من الأماكن التى زارتها العائلة المقدسة: ما بين شمال مصر وجنوبها ، وشرقها وغربها.

* يوضح كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية عن هذه الأماكن ، وماخلّفته هذه الزيارة من آثار دينية.

* فى نهاية الكتاب .. يجد القارئ مجموعة من الخرائط توضح مواقع المدن والقرى التى زارتها العائلة المقدسة فى مصر.